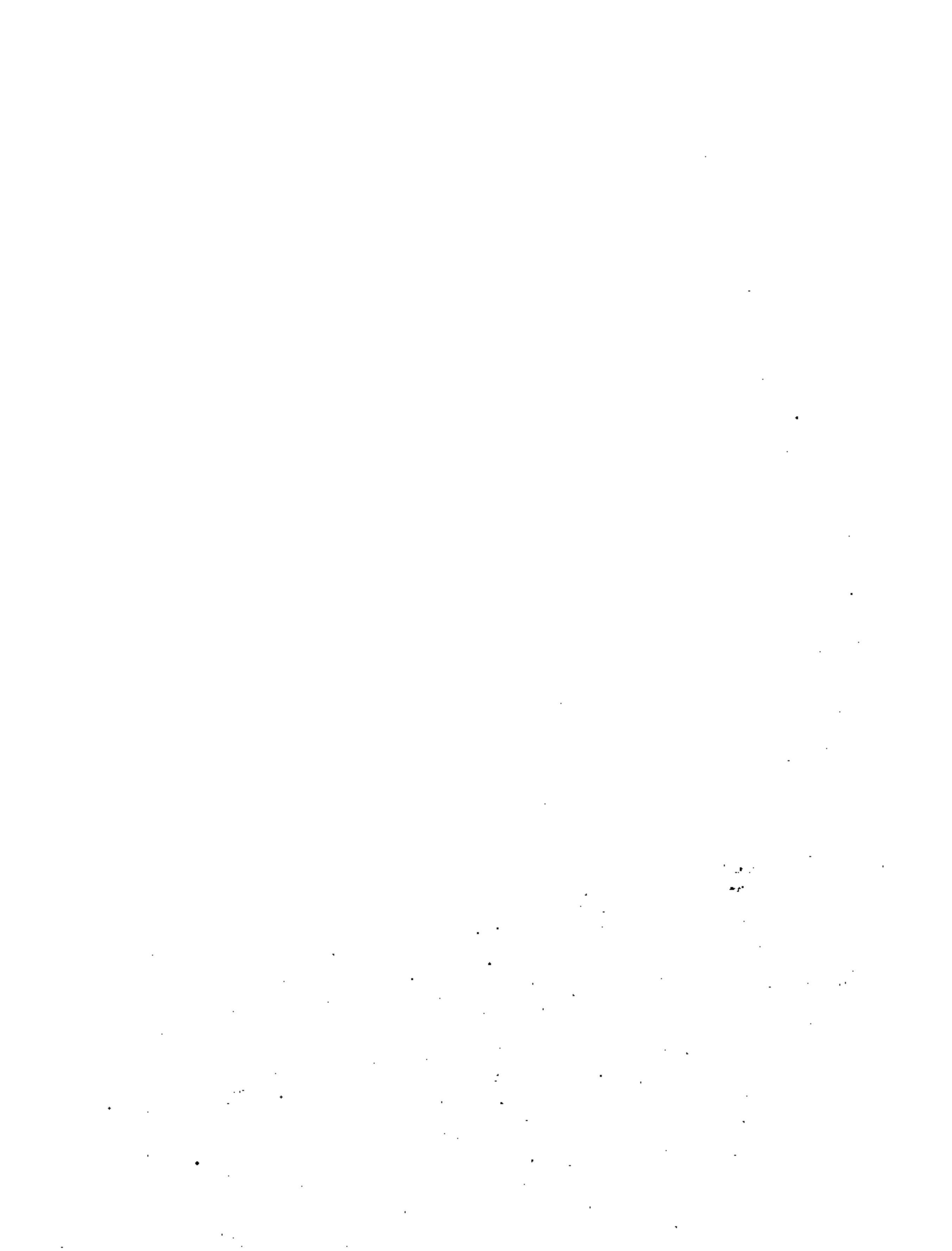
# دعوى إسقاط التكاليف الشرعية

# وموقف الصوفيه منها

د/ هانى على سليم



بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وقدوتنا ومعلمنا محمداً رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد،

لقد طغت المادية على حياة مجتمعاتنا، فى الوقت الذى انحسرت فيه الروحانية إلى حد كبير، وذلك نتيجة تلك الموجة الطاغية من مدنية المادية وحضارة المتع والشهوات التى غزت بلادنا، ومن ثم سادت المقاييس والموازين المادية على المقاييس الروحية، بل لقد استحوذت الدنيا بمتعها التافهة على اهتمام الكثير من الناس وصارت أكبر همهم ومبلغ علمهم .

ومن ثم ما أحوج البشرية اليوم إلى الإنقاذ من ظلمات الضلال إلى نور الهداية والأخذ بأيدى الناس من جاذبية المادية والإخلاد إليها إلى سمو الروح والرقى بها، وهذا لن يتحقق إلا بالعودة إلى تعاليم الإسلام ومنهجه الربانى الذى يسمو بالإنسان ويدعو إلى الرحمة والعدل، ويوائم بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح، ويحقق السعادة الدنيوية والأخروية معاً، وهذا هو ما يدعو إليه علم التصوف الحقيقى.

فلو فهم المستنكرون على هذا العلم حقيقته السامية، لسعوا إليه سعياً حثيثاً، ولعضوا عليه بالنواجذ، لأن هذا العلم يعيد للإسلام حقيقته الغائبة ويعيد له جوهره الثمين، وروحه الصافية، ولذلك لم يكن مصادفة، ولا عبثاً أن يتعرض التصوف لهذه الهجمات الشرسة وتلك الادعاءات الباطلة، لأن المقصود بذلك أن يظل الإسلام شريعة تعبدية، تقتصر على طقوس ظاهرية، لاتحقق المقصود من تلك الرسالة السامية.

ومما لاشك فيه أن التصوف الإسلامي منذ فجره الأول قد ابتلى كما ابتليت المعارف الإسلامية كافة بالدخلاء سلوكاً وقولاً، ومن ثم جاء اختياري لهذا الموضوع – دعوى إسقاط التكاليف الشرعية وموقف الصوفية منها – كي أحدّ من هذه النزعة المعادية للتصوف والمتحاملة عليه، ومن سوء الفهم لدى البعض عن التصوف، ولأبيّن وجه الحقيقة في هذا الموضوع، وذلك حتى يعود للتصوف الإسلامي أصالته ومكانته القوية ودوره الإيجابي في حياة المسلمين المعاصرين، لأن المسلمين اليوم بحاجة شديدة إلى تصوف إيجابي يتغلبون به على ما أصاب حياتهم من جفاف مادي وجدل عقيم أدى بهم إلى قسوة القلوب.

وقد اشتمل هذا البحث المتواضع على مقدمة وأربعة مباحث، المقدمة تدور حول أهمية التصوف ومدى الحاجة إليه، والمبحث الأول بعنوان مراحل التصوف الإسلامي والمبحث الثاني جاء بعنوان الأسباب الحقيقية التي أدت لظهور الانحرافات والدعوات الهدامة في تاريخ التصوف، والمبحث الثالث بعنوان موقف الصوفية من تكاليف الشرع، أما المبحث الرابع فقد جاء بعنوان دعوى إسقاط التكاليف والرد عليها .

## المبحث الأول

## مراحل التصوف الإسلامي

مرّ التصوف الإسلامي بعدة مراحل في مساره الطويل، وتواردت عليه ظروف مختلفة، فبدأ أولاً في صورة من الزهد والنسك الموروث عن السلف الصالح، وانتشر بهذه الصورة في مختلف الأمصار والأقطار الإسلامية، ثم نما بعد ذلك وازدهر وشاع، وأصبح تياراً روحياً تربوياً ينتظم الشيوخ والمريدين، وصار الصوفية طائفة أو فئة من المسلمين تتميز عن المتكلمين والمحدثين والفقهاء، وتدون مثلهم مبادئها وتاريخها، ثم انتقل التصوف نقله جديدة من تيار روحي إلى حركة فكرية واجتماعية واسعة، ولم تغفل منطلقاتها الروحية، ثم أصاب التصوف ما أصاب الحياة الإسلامية العامة – وخاصة في جوانبها الثقافية والحضارية – من ركود وتدهور وانحراف، إلى أن هبت صحوة جديدة واضحة خلال العصر الحديث عادت بالتصوف الإسلامي إلى مساره الصحيح، ومن ثم يجدر بنا أن نتعرف في عجالة سريعة على تلك المراحل التي مرّ بها التصوف الإسلامي وهي كالآتي :-

<u>المرحلة الأولى</u>:- هي الواقعة في القرنين الأول والثاني الهجريين، ومن الممكن أن نطلق على التصوف في هذه المرحلة – التي لم يكن مصطلح التصوف قد ظهر فيها بعد – أهم لفظ من الألفاظ التي تعبّر عن هذا النوع من العبادة الخالصة لله تعالى، وهو الزهد، وأن نسميها بمرحلة الزهد، على أساس أن هذا اللفظ يُعبّر عن عدم التها فت على الدنيا وزخارفها والتوجه إلى الله

وحده بالتعبُّد، كما أن هذا اللفظ يُعبِّر عن عدة معانٍ أخرى تدخل تحت مصطلح التصوف، مثل: الورع والتقوى والتقشف والصبر والتطهر، فقد كانت قوة هذا اللفظ كفيلة حقاً بأن نُطلق على تلك المرحلة الأولى من التصوف الإسلامي "مرحلة الزهد"[1].

وقد نشأ الزهد في تلك المرحلة نشأة إسلامية خالصة، وكان زهداً بسيطاً في نفوس المسلمين، لأنهم رأوا الرسول - ﷺ - معرضاً عن الدنيا زاهداً فيها، لائماً للمقبلين عليها، ثم كان من لوازم هذا التأسى المحاولة المستمرة في تصفية النفس من علائقها والانقطاع إلى الله - تعالى - للعبادة والذكر، غير أن هؤلاء الذين آثروا هذا السلوك لم تكن تجمعهم رابطة واحدة، بل كان لكل منهم وسيلته الخاصة من دعاء وتعبد وعبادة، وإن التقى الكل في النهاية على هدف واحد هو رضا الله عزوجل ومحبته بقصد الحصول على أعلى الدرجات .

والملاحظ على هذا الزهد انه كان خاضعاً لسلطان الحزن والبكاء، اللذين يدلان في وضوح على مبلغ خوف الزُّهاد والعباد من النار وآلامها، وعلى الندم الناشئ عن معصية الله تعالى، حتى يمكننا أن نقول: إن الطابع للزهد في القرن الأول وبعض من القرن الثاني كان الحزن والخوف وغلبة البكاء، حتى وجد ما عُرف بالبكائين من زهاد هذا العصر، ولعل أكبر مثل للزهد في هذه

---

[1] - التصوف الإسلامي في مراحل تطوره :عبد المحسن سلطان، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٣هـ ن ص ٢٠.

الأونة هو الإمام الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠هـ[1]* ، والذى كان دعامة الحياة عنده هو الزهد فى هذه الحياة الدنيا والإعراض عن جاهها، والإقبال على الله – تعالى– والتوكل عليه، والخوف منه، والتفكر الدائم فيما بينه وبين نفسه[2] .

وقد وجدت عدة عوامل ساعدت على ظهور هذا الزهد وانتشاره، من أهمها ما يلى :-

<u>العامل الأول</u> : تعاليم الإسلام نفسها، فقد حث القرآن على الورع وهجر الدنيا وزخرفها، ودعا إلى العبادة والتبتل وقيام الليل والتهجد، وجاءت السنة النبوية فذكت هذه التعاليم وأكدت عليها، بل إن النبى – ﷺ – أعطى بحياته مثلاً واضحاً فى الزهد والعزوف عن الدنيا وزخرفها، وكانت حياته ﷺ هو وأصحابه نموذجاً للزاهد الحق الذى يملك الدنيا ولا تملكه .

<u>العامل الثانى</u>: ثورة المسلمين الروحية ضد نظام اجتماعى وسياسى قائم، وذلك أن المسلمين عندما اتسعت فتوحاتهم وكثرت غنائمهم، أقبل الكثيرون منهم على الدنيا وجنحوا إليها، وشجعهم على ذلك الثراء المفاجئ الذى

---

[1] – * الحسن البصرى: كنيته أبو سعيد، كان أبوه إيرانياً من ميسان، وسباه المسلمون لدى فتح العراق، وولد الحسن فيها سنه ٢٢هـ وغادرها إلى البصرة سنة ٣٨هـ وأقام بها إلى أن توفى سنة ١١٠هـ ( الموسوعة الصوفية : عبد المنعم الحنفى، دار الرشاد، القاهرة ، ط ١، ١٩٩٢م ، ص ٥٧ ) .

[2] – بين التصوف والأدب : محمد إبراهيم الجيوش : مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ص٣٣.

أصابوه وكانت نتيجة ذلك أن قامت فى نفوس أتقيائهم ثورة داخلية محورها الصراع بين نفوس لاتزال على إيمانها القوى والدنيا المقبلة بمغرياتها .

العامل الثالث: الرهبنة المسيحية، فكثيراً ما نقرأ عن زيادات عُباد المسلمين للرهبان فى صوامعهم وأخذهم عنهم بعض تعاليمهم، ومن ذلك ما روى عن إبراهيم بن أدهم أنه قال :" تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان " (١)

العامل الرابع: الثورة ضد الفقه وعلم الكلام، وذلك أن أتقياء المسلمين لم يجدوا فى فهم الفقهاء والمتكلمين للإسلام ما يشبع عاطفتهم الدينية، فلجأوا إلى التصوف لإشباع هذه العاطفة(٢) .

كل هذه العوامل وغيرها حركت في نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها، وحولت أنظارهم نحو الحياة الآخرة ووضعت آمالهم فيها، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية وانتشرت على مرّ الأيام، فكانت زهداً دينياً خالصاً.

وأهم ما يميز تلك المرحلة عن غيرها ما يلى :-

١- أن زهدها كان زهداً عملياً، لا يعتمد أصحابه على النظريات والقواعد، حيث سارع الزُّهاد الأول إلى تطبيق ما ورد فى القرآن الكريم من ترك الحظ فى الدنيا والتوجه كلياً إلى الآخرة عن طريق التمسك بالطاعات والفرائض التى أوجبها الشرع، فكان ظهور الزاهد العملى نتيجة لذلك .

---

(١ -٢) التصوف الثورة الروحية فى الإسلام : أبو العلا عفيفى، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٣، ص٦٥ وما بعده، وانظر : بحار الحب عند الصوفية: أحمد بهجت، دار المختار الإسلامى للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٧٩، ص٧١ .

٢- الاعتدال في السلوك، وذلك بالامتثال لأحكام الشرع في حياتهم، ولهذا لم تكن لهم لغة خاصة بهم أو تعبيرات تشير إلى طريقتهم .

٣- تميزت بأن أصولها ومصادرها الأساسية إسلامية بحتة، هي كتاب الله، وحديث رسول الله - ﷺ- وحياته وحياة أصحابه الأجلاء .

٤- لم يتسم الجميع بنظام عام، أو تربط بينهم طريقة واحدة، بل كان لكل منهم نظام حياته الروحية الخاص به، وطريقته في العبادة التي وإن اختلفت عن طريقة غيره إلا أنها كانت مثلها في أنها وسيلة لبلوغ الغاية التي كانت يطمح إليها الجميع [1].

<u>المرحلة الثانية</u> : هي مرحلة التصوف، وهي الواقعة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ففي أخريات القرن الثاني الهجري تحول الزهد إلى التصوف، وولد في الإسلام علم جديد في مقابل علم الفقه، أو بعبارة أدق انقسم علم الشريعة إلى قسمين: علم الفقه الذي يبحث في الأحكام التي تجري على الجوارح، وعلم التصوف الذي يبحث في باطن الشريعة وتفهم أسرارها والنظر في العبادات وأثرها في النفوس، وما يترتب عليها من أحوال نفسية وفوائد روحية[2] .

---

[1] - راجع: الحياة الروحية في الإسلام: محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠،ص٦٩، التصوف بين الغزالي وابن تيمية: عبد الفتاح محمد سيد أحمد، دار الوفاء، المنصورة،ط١، ٢٠٠٠م، ص٣٤، دراسات في التصوف والأخلاق: سامي عفيفي حجازي، طبعة القاهرة، ١٩٩٨م،ص٦١ .

[2] - التصوف الثورة الروحية في الإسلام : أبو العلا عفيفي ، مرجع سابق، ص٩٠ .

ومن ثم تحول التصوف فى المرحلة الثانية من زهد بسيط لاقواعد له ولا أصول يقوم عليها، إلى حياة روحية منظمة ومؤسسة على قواعـد مرسـومة، وعلى أساليب من المجاهدات، وعلى دراسة لأحوال النفس والسلوك والمقامات والأحوال.

وهذا هو ما أكده الدكتور التفتازانى عندما قال:" ومنـذ القـرن الثالـث الهجرة نجد الصوفية وقد عنوا بالكلام في دقائق أحـوال الـنفس والـسلوك، وغلب عليهم الطابع الأخلاقى فى علمهم وعملهم، فصار التصوف على أيديهم علماً للأخلاق الدينية، وكانت مباحثهم الأخلاقية تدفعهم إلى التعمق فى دراسة النفس الإنسانية ودقائق أحوال سلوكها، وكانت تقودهم أحياناً إلى الكـلام فـى المعرفة الذوقية وأداتها ومنهجها.... ونشأ عن ذلك كله علم الصوفية"[1] .

وبعد أن كان الزُهاد والعباد يحبون حياتهم التعبدية فى المرحلة الأولـى دون أن يكون لهم هناك نظام عام يجمعهم ويربط بينهم، أصبحوا فـى هـذه المرحلة يجتمعون تحت حركة منتظمة، أطلق على أصحابها اسـم الـصوفية، وأخذوا يجمعون المريدين من أجل تـربيتهم، فتكونـت لأول مـرة الطـرق الصوفية فى الإسلام، والتى كانت آنذاك بمثابة المدارس التى يتلقى الـسالكون فيها آداب التصوف علماً وعملاً .

ويشير الدكتور محمد مصطفى حلمى إلى هذا فيقول :" على أن نمو التصوف وازدهاره فى القرنين الثالث والرابع لم يقف عند حد تأسيس مذاهبـه وكثـره مشايخه الذين أعانوا على هذا التأسيس فحسب، بل هو يتجاوزه إلى شئ آخر:

---

[1] – محاضرات فى التصوف الإسلامى : أبو الوفا التفتازانى، دار الشباب للطباعة،القاهرة، ص١٢

ذلك أن الصوفية أخذوا منذ النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى ينظمون أنفسهم طوائف وطرقاً يخضعون فيها النظم خاصة بكل طريقة، وكان قوام هذه الطرق طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشد يسلكهم ويبصرهم على الوجه الذى يحقق لهم كما العلم وكمال العمل "[1].

**وأبرز ما يميز هذه المرحلة مايلى:-**

**أولاً:** أنها كانت بداية لا نتقال الفكر الصوفى من العبادة المجردة إلى تدوين القواعد والنظريات التى تحتوى على حقائق علم القلوب وشرح مصطللحاته .

**ثانياً:** أنه قد ظهر فى هذه المرحلة المعرفة الصوفية والكشف الصوفى وهى تعبيرات ذات وقع خاص لدى أولئك الذين انخرطوا فى سلك التصرف، كما عرفوا أيضاً التمييز بين الشريعة والحقيقة وتم الانفصال بينهما فى التدوين، فأصبح فقه الشريعة مقصوراً على الدراسات المتعلقة بمصالح المكلفين من حيث الأحكام الظاهره للعبادات والمعاملات، وأما فقه الحقيقة فهو البحث فيما يوصل العبد الى الله- تعالى - بعد رياضات نفسية ومجاهدات .

**ثالثاً:** كما تمتاز ايضاً هذه المرحلة بظهور البواكير الأولى للتصوف الفلسفى نتيجة لاحتكاك الثقافات التى كانت ترد على المسلمين من مختلف مناحى الفكر، فظهر الحديث عن فناء العبد فى الرب على يد

[1] - الحياة الروحية فى الإسلام : محمد مصطفى حلمى ، مرجع سابق ص ١١١، ١١٢ .

البسطامى[1]*كما كان هناك تصوف الحلاج[2] **الذى تأثرفيه بمصادر أجنبية عن الإسلام وانتهى الأمر بإعدامه

رابعاً: كما امتازت هذه المرحلة أيضاً بدعوة بعض شيوخ التصوف كالجنيد بن محمد والسرى السقطى والخراز[3]*** وغيرهم إلى جمع المريدين حولهم وتربيتهم، فنشأت البدايات الأولى للطرق الصوفية، وتعتبر هذه

---

[1] – * هو أبو يزيد طيفور البسطامي، ولد سنه ١٨٨هـ في مدينه بسطام في خراسان جهة العراق، كان جده مجوسياً ثم أسلم وقيل بل كان يهودياً، اشتهر بالمجاهدات، وعُرف بكثرة شطحاته وخوفة وورعه، توفي ببسطام سنة ٢٦١هـ ودفن فيها( الموسوعة الصوفية: عبد المنعم الحفني، مرجع سابق،ص ٥١ ) .

[2] – ** هو الحسين بن منصور الحلاج الشاعر الصوفي صاحب المأساة المشهورة فى تاريخ الفكر والتصوف باسم مأساة الحلاج، ولد بفارس سنة ٢٤٤هـ، ولقب بالحلاج لأن أباه كان يعمل فى صناعة الحلج، ترك عدداً كبيراً من المصنفات بلغت الأربعين مصنفات، أشهرها طس الأزل. والشجرة النورية، قتل مصلوباً في بغداد سنة ٣٠٩هـ (الموسوعة الصوفية: عبد المنعم الحفنى ، مرجع سابق، ص١٢٦) .

[3] – الجُنيد هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج سيد الطائفة الصوفية وإمامهم، كان أبوه يبيع الزجاج، أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق، صحب خاله السرى السقطى والحارث المحاسبى وغيرهما، توفى سنة ٢٩٧هـ ( الطبقات الكبرى: عبد الوهاب الشعرانى، طبعة مكتبة محمد على صبيح وأولاده، القاهرة، د.ت، جـ١، ص ٧٢) والسرى السقطى هو: أبو الحسن السَّرِيّ السقطي، خال الجنيد وأستاذه، صحب معروفاً الكرخى، وهو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته ،توفى سنة ٢٥١هـ( الطبقات الكبرى للشعرانى ،مرجع سابق، جـ١،ص٦٣) الخراز: هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز، من أهل بغداد صحب ذا النون المصرى وسرياً السقطى وبشراً الحافى وغيرهم من أئمة الصوفية، قيل إنه أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء، توفى سنة ٢٧٩هـ ( الطبقات الكبرى، جـ١، ص٧٨) .

الطرق بمثابة المدارس التى تلقى فيها الصوفية آداب الطريق علماً وعملاً .

خامساً: وأخيراً امتازت هذه المرحلة بكثرة وظهور مشايخ الصوفية، الذين وضعوا معالم التصوف وأرسوا قواعده على أساس منظم، وشرعوا للناس سبيله، وأبانوا منهاجه، ومنهم أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى، / وذوالنون المصرى[1]**** ، والجنيد والخراز وغيرهم[2] .

من خلال هذا العرض السريع رأينا كيف نما التصوف وازدهر خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، واللذان يمثلان بحق العصر الذهبى للتصوف الإسلامى فى أرقى وأصفى مراتبه، فلقد بلغ التصوف الإسلامى فيهما أوج نضجه، حيث ضم رعيلاً هائلاً من أبرز متصوفة الإسلام، وقد أشار إلى هذا صاحب كتاب كشف المحجوب فقال:" وقصارى القول إن الصرح المتكامل للتصوف الإسلامى الذى خلد على مرّ الزمان، وبدا متين الأساس شامخ

---

[1] - **** المحاسبى : هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى، من أهل البصرة، وهو أستاذ أكثر البغداديين، وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب ( الرعاية لحقوق الله) توفى سنه ٢٤٣هـ ( الموسوعه الصوفية: عبد المنعم الحنفى، مرجع سابق، ص٣٥١). ذو النون المصرى : هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصرى: أوذى كثيراً لكونه أتى بعلم جديد هو علم التصوف، حتى قال عنه المستشرق نيكلسون " هو أحق رجال الصوفية على الإطلاق أن ينسب إليه أنه واضع أسس التصوف"، توفى سنة ٢٤٥هـ ( الموسوعة الصوفية: عبد المنعم الحنفى ، مرجع سابق ،ص١٦٥) .

[2] - انظر: التصوف الإسلامى منظور تحليلى من خلال الرواد: محمد محمود شحاته، طبعة ١٩٩٢م، ص ٣٧ ومابعدها .

البنيان، قد أرسى أسسه وقواعده رجال عاشوا فى القـرنين الثالـث والرابـع الهجريين، ووضع كل منهم لبنة فى هيكله حتى اكتمل البناء"[1] .

<u>المرحلة الثالثة</u>: وتقع هذه المرحلة فى القرن الخـامس الهجـرى، حيـث إن التصوف فى القرنين الثالث والرابع الهجريين لم يستمر فى أحـضان الكتـاب والسنة فقط، بل استرعى انتباه بعض الخاصة من الصوفية المعـانى الدقيقـة التى ينطوى عليها القرآن الكريم، والتى تضع الإنسان فى الطريق نحو حياته الباطنية، وتقوى حياة التأمل التى نشاهدها عند الصوفية، متأثرين فـى هـذا بالعوامل الخارجية من عقائد وأديان وأفكار حول حديثهم عن النفس وأحوالها ومقاماتها، والبحث عن الفناء والبقاء والحب الإلهى ومعرفة الله والاتحاد به.

**حتى يمكننا القول بأن التصوف عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين كان له اتجاهان متميزان:-**

أحدهما: سنى يمثله صوفية معتدلون فى آرائهم، يربطون تـصوفهم بالكتـاب والسنه بصورة واضحة، وإن شئت قلت: يزنـون تـصوفهم دائمـاً بميـزان الشريعة ويغلب على تصوفهم الطابع الأخلاقـى ومـن أشـهرهم: الجنيـد، ومعروف الكرخى[2]*، والسرى السقطى، والحـارث المحاسـبى، والاتجـاه الثانى: هو اتجاه شبه فلسفى يمثله صوفية استسلموا لأحوال الفنـاء، ونطقـوا بعبارات غريبة، عرفت بالشطحات، وكانت لهم تصورات لعلاقة الإنسان بالله

---

[1] - كشف المحجوب : للهجويرى ، حـ ١، ص١٣٢ .

[2] - * هو أبو محفوظ الكرخى، نسبة إلى كرخ وهى قرية ببغداد، وهو من جملة المـشايخ المشهورين بالزهد والورع، مات ببغداد ودفن بها سنة ٢٠٠٠هـ ( الطبقات الكبـرى للشعرانى حـ١، ص٦١) .

كالاتحاد والحلول، ومن أشهر هؤلاء الصوفية: أبو زيد البسطامى والحلاج وغيرهما[1].

وقد استمر هذا الاتجاه السنى أثناء القرن الخامس الهجرى بوضوح، على حين اختفى الاتجاه شبه الفلسفى فى هذا القرن، وإن كان قد عاودا لظهور فى صورة أخرى عند أفراد آخرين من متفلسفة الصوفية فى القرن السادس الهجرى وما بعده، ولعل السبب فى اختفاء الاتجاه شبه الفلسفى فى القرن الخامس راجع إلى غلبة مذهب أهل السنة والجماعة الكلامى على ما سواه من مذاهب ومحاربته الغلو الذى ظهر فى التصوف على يد كل من البسطامى والحلاج وكل أنواع الانحرافات التى بدأت تظهر فى ميدان التصوف[2].

ولذلك اتخذ التصوف فى القرن الخامس الهجرى اتجاهاً اصلاحياً واضحاً، كان الغرض منه إرجاع التصوف إلى حظيرة الكتاب والسنة، ويعتبر القشيرى والغزالى من أبرز صوفية هذا القرن الذين قاموا بتصفية التصوف من شوائب علقت به وليست من الإسلام فى شئ، ومن ثم كُتب الانتصار للتصوف السنى، فانتشر على نطاق واسع جداً فى العالم الإسلامى.

<u>المرحلة الرابعة</u>: هى التى تقع فى القرنين السادس والسابع الهجريين، وفى هذه المرحلة ظهر التصوف الفلسفى بوضوح واستمر بعد ذلك، والتصوف الفلسفى هو الذى ينهج أصحابه فيه إلى المزج بين أذواقهم الصوفية وأنظارهم العقلية معتمدين فى التعبير عنه على مصطلحات فلسفية استمدوها من خلال

---

[1] – مدخل إلى التصوف الإسلامى : أبو الوفا التفتازانى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، ١٩٨٣م، ص٩٩ .

[2] – المرجع السابق ،ص ١٤٥ .

التأثر بالتيارات والفلسفات الدخيلة على الحضارة العربية الإسلامية: كالهندية، واليونانية، والفارسية، واليهودية، والمسيحية[1] .

وما دام التصوف الفلسفي هو تصوف وفلسفة، فلا بد فيه من التأثر والتأثير، لكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن الصوفية المتفلسفين لم يحافظوا فيه على أصالتهم واستقلاليتهم باعتبارهم صوفية مسلمين، وإنما حافظوا على أصالتهم الإسلامية، وهذا هو ما أشار إليه الدكتور التفتازاني عندما قال:" ولما كان هذا اللون من التصوف (التصوف الفلسفي) ممتزجاً بالفلسفة، فإنه قد تسربت إليه بذلك فلسفات أجنبية متعددة، يونانية وفارسية وهندية ومسيحية، وذلك لا ينفي أصالته، لأن صوفيته تمثلوا هذه الثقافات وحافظوا في نفس الوقت على استقلاليتهم في مذاهبهم باعتبارهم مسلمين، وهذا يفسر لنا جهودهم في الملاءمة بين المذاهب الأجنبية عنهم والإسلام، وهي جهود واضحة في مصنفاتهم"[2] .

ولو أردنا أن نتعرف على طبيعة هذا التصوف، فسيظهر لنا من خلال مصنفات أصحابه أنه تصوف غامض ذو لغة اصطلاحية خاصة، ويحتاج في فهم مسائله إلى جهد كبير جداً، كما لايمكن اعتباره فلسفة حيث إنه قائم على الذوق، كما لا يمكن اعتباره تصوفاً خالصاً، لأنه يختلف عن التصوف الخالص في أنه معبر عنه بلغة فلسفية [3] .

---

[1] – منهج التأويل في الفكر الصوفي: نظلة الجبوري،مكتبة ابن تيمية، البحرين،ط١،١٩٨٨م، ص٣٣

[2] – مدخل إلى التصوف الإسلامي: أبو الوفا التفتازاني، مرجع سابق ، ص (١٨٧) .

[3] – المرجع السابق ، ص(١٨٧) .

**أما عن أهم موضوعات التصوف التى كانت تدور عليها مذاهب الصوفية فى هذه المرحلة، فيمكن أن نجملها فيما يلى:-**

١- المجاهدات وما يحصل عنها من الأذواق والمواجيد ومحاسبة النفس على الأعمال .

٢- الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وترتيب الأكوان في صدورها عن موجودها ومكونها .

٣- التصرفات فى العالم والأكوان بأنواع الخوارق والكرامات .

٤- صدور الألفاظ الموهمة للظاهر والتى تعرف بالشطحات، وهذه العبارات التى تستشكل ظواهرها، والناس بالنسبة لها بين منكر ومستحسن ومتأول[1] .

وبظهور التصوف الفلسفى فى هذه المرحلة شهد القرن السابع الهجرى وما تلاه من قرون سلسلة من الخصومات الحادة بين الفقهاء ومتفلسفى الصوفية، ومن أبرز هذه الخصومات فى هذه المرحلة ما كان من شيخ الإسلام ابن تيمية الذى أثار ثورة على تعاليم متفلسفى الصوفية لما أدخلوه على الإسلام من مصادر أجنبية عنه، وكتب فى ذلك عدة رسائل نقد فيها مذاهبهم وكشف عن تعارضها مع المعقول والمنقول، أما التصوف الذى يتوافق مع تعاليم الكتاب والسنة، فلم يرفضه شيخ الإسلام ولم ينقده وإنما دعى إليه، وهذا يتضح لنا من خلال مؤلفاته .

---

[1] - مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت ط٥، ١٩٨٤م ، ص(٤٧٤) .

المرحلة الخامسة: ويمكن أن نسميها بمرحلة التدهور والانحراف والانحطاط، فبعد هذه المراحل السابقة والتى مرّ بها التصوف الإسلامى، والتى شهدنا فيها ازدهار التصوف من الناحيتين العلمية والعملية، أصيب التصوف فى عصوره المتأخرة ( منذ القرن الثامن الهجرى تقريباً إلى العصر الحاضر) بشئ من التدهور والانحطاط، وامتزج فيه بهذه الحياة الروحية الراقية كثير من عناصر الغرور وحب الظهور والميل إلى السيطرة على عقول السذج من عامة الناس، والجرى وراء القرب لدى أصحاب النفوذ والسلطان .

كما خالف كثير من المنتسبين إلى التصوف ما سار عليه السلف الصالح من سنن الزهد والعبادة وأصول المجاهدة والرياضة، الأمر الذى ترتب عليه أن خرجت الحياة الروحية عن معناها الذى ينبغى أن تدل عليه، وانحرفت كذلك عن غايتها التى ينبغى أن تسعى إليها، كما وقف نمو التعاليم الصوفية عند الحد الذى وضعه الأقدمون، فالذين جاءوا من الصوفية بعد القرن السابع الهجرى لايكادون يضيفون شئياً جديداً إلى ما قاله المتقدمون، ومصنفاتهم لاتكاد تزيد على أنها إما شروح أو تلخيصات لكتب المتقدمين، دون أن يكون فى هذه المصنفات شئ من الابتكار أو التجديد، وعلى كل حال فإن انحراف بعض الصوفية فى بعض عصور التاريخ لاينهض دليلاً على فساد دعوتهم[١] .

ولاشك أن انحطاط التصوف وانحرافه ووقوفه عند هذا الحد من النمو يرجع إلى عدة عوامل وأسباب تسببت فى وصوله إلى هذه الدرجة، وهذا هو ما سوف نتحدث عنه فى المبحث الثانى.

---

١ - الحياة الروحية فى الإسلام : محمد مصطفى حلمى، مرجع سابق، ص ١٦٤، وانظر : محاضرات فى التصوف الإسلامى : أبو الوفا التفتازانى، مرجع سابق، ص١٥.

ولا ينبغى أن يفهم مما سبق أن التصوف الإسلامى قد انتهى من الجو الإسلامى وخلت منه البيئة الإسلامية، أو أن الحياة الروحية الإسلامية أصبحت فى جملتها وتفاصيلها ما انتهى إليه أمر التصوف فى عهده الأخير، كلا بل هو موجود وله أثره فى المجتمع، وإنما يعنى هذا – كما يقول الدكتور حلمى:" أن الذى غلب على هذه الحياة هو ذلك الانحراف عن السنة القويمة التى وضع حجرها الأساسى الزهاد الأولون، وأقام صرحها من جاء بعدهم من الصوفية، ومع ذلك فإن الحياة الروحية لم تعدم بعض النفوس الصافية، والقلوب الطاهرة، والبصائر المشرقة التى كانت وما تزال تظهر من حين إلى حين، ولو أن أصحابها يؤثرون التستر والاستخفاء على الظهور والادعاء"[١].

ولعله قد تبين لنا بعد هذا العرض الموجز للمراحل التى مرّ بها التصوف الإسلامى، أن مرحلة نضوجه وازدهاره تبدأ من القرن الثالث الهجرى وما بعده حين تحول التصوف إلى علم للأخلاق الدينية يهدف إلى الترقى بالنفس الإنسانية لتبلغ كما لها، وأن مرحلة انحطاطه وانحرافه تبدأ من القرن الثامن الهجرى وما بعده حتى عصرنا الحاضر، حين اختلطت الفلسفة بالتصوف، وحين انتسب إلى التصوف رجال لايفقهون شيئاً عن التصوف، وإنما هم أدعياء ودخلاء على التصوف والصوفية الحقيقيين .

١ – الحياة الروحية فى الإسلام: محمد مصطفى حلمى، مرجع السابق ، ص ١٦٥ .

## المبحث الثانى

## الأسباب الحقيقية التى أدت لظهور الانحرافات والدعوات الهدامة فى التصوف

تعرض التصوف الإسلامى كسائر العلوم والظواهر الثقافية والاجتماعية لأطوار مختلفة وأحوال متفاوتة من القرب والبعد عن منهج الشرع الحنيف. ولا أظن أن بوسع أحد من مؤيدى التصوف أو معارضيه أن يشكك فى مدى التدهور أو الانحراف الذى أصاب التصوف والمتصوفة فى العصور المتأخرة، حيث غلبت الرسوم والمظاهر والشكليات واختفت الحقائق، وكثر الأدعياء، وقلّ المربون الصادقون، وانتشرت البدع والمنكرات والمخالفات الشرعية، والتى من بينها دعوى إسقاط التكاليف الشرعية موضوع هذا البحث.

كما ركدت حالة التأليف، واقتصر الصوفية على الاعتماد الكلى على مؤلفات السابقين، وغير ذلك من مظاهر الضعف والانحراف الموجود فى التصوف الإسلامى، وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على وجود هذا الانحراف وتلك الدعوات الهدامة فى تاريخ التصوف الإسلامى، من أهمها مايلى: -

١- أدعياء التصوف: التصوف أمر، ماخفى منه أضعاف ما ظهر، وذلك لأنه يتعلق بالقلوب والأرواح والنفوس، ولا يدور حول الأشكال والظواهر، ولذلك تكثر فى ميدانه الدعاوى ما بين صادقة وكاذبة، ولعل هذا هو السبب فى اختلاط الصادقين بالكاذبين فى هذا المجال،

وعدم تمييز الواصلين بالله تعالى منهم من المفترين المدعين المحترفين إلا بصعوبة شديدة .

ولاشك أن التصوف الإسلامي قدمُني بالأدعياء واللصقاء شأنه فى ذلك شأن غيره من المذاهب والملل، وهؤلاء الأدعياء الذين يوهمون الناس بأنهم قد وصلوا إلى أعلى الدرجات والمقامات، ويأمرونهم باتباعهم ويؤثرون تأثيراً بليغاً، حتى يتصرفون فيهم كما يحلوا لهم، ويستخدمون الدروشة والذكر فى مجالسهم لابتذاد الناس وسلب أموالهم، حتى أنهم قد جعلوا الدين متجراً لأغراضهم الدنيوية، واجتمع هذا كله مع سوء فهم للدين، فأباحوا كل ما هو مذموم من الأخلاق الرديئة والعادات المسيئة، ومن ثم انتشرت الانحرافات والبدع فى التصوف، ورُمى التصوف الإسلامى بمجموعة من الدعاوى والاتهامات الكاذبة .

ومن الحق القول بأنه:" لايضر التصوف والطرق الصوفية ظهور هذه الفئة من المتواكلين والدجالين والمشعوذين والبلهاء الذين يتكسبون من وراء لبس الخرق والهلاهيل والانتساب للطريق، فليس ذكر الله بهذه الصورة البشعة التى يذكر بها الدراويش والمجذوبون من الطريق فى شئ، وليس من التصوف ولا من الطريق إقامة هذه الأضرحة العظيمة لشيوخ الطرق، وتقديس مريديهم لها وتوسلهم بهذه الأجساد الطاهرة الراقدة تحت الثرى"[1] وإذا كانت سلوكيات هذه الفئة الضالة من أدعياء التصوف لاتضر بالتصوف فى ذاته وحقائقه، إلا أنها تعد من أقوى وأهم الأسباب التى ساعدت على ظهور الانحرافات والبدع فى التصوف الإسلامى.

---

[1] - الطرق الصوفية فى مصر: عامر النجار، ط٣، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٠ .

كذلك ليس من الإنصاف – كما يقول الأستاذ العقاد – أن تُحَمَّلَ على التصوف أوزار هؤلاء اللصقاء وأولئك الأدعياء، الذين يندسون في صفوفه نفاقاً واحتيالاً أو جهلاً وفضولاً، فإنه ما من نحلة في القديم والحديث سلمت من أوزار اللصقاء الذين ينتمون إليها من غير أهلها[1].

لكن من الواجب على علماء التصوف الحق أن يكشفوا أخطاء هؤلاء الجهلة وانحرافات الدخلاء واللصقاء، وهذا هو ما فعله الإمام الغزالي – رحمه الله- أثناء رحلته مع التصوف، فقد عرف هذه الانحرافات وتلك الأخطاء معرفة كاملة عن قرب، وإذا كان – رحمه الله- قد ضرب الفلسفة ضربته القاصمة، وألجأ الفلاسفة إلى خنادق الدفاع، بعد أن بيّن تهافتهم وتناقضهم، وقام بفضح أسرار الباطنية وهتك أسرارهم وكشف مخازيهم دفاعاً عن الإسلام، فإنه ما كان ليسكت عن انحرافات وأخطاء أدعياء التصوف، والتي لاتقل خطراً عن خطر الفلاسفة والباطنية .

فقد صور الإمام الغزالي ما آل إليه أمر المتصوفة من فساد، فيذكر أن أكثر متصوفة هذه الأعصار – لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة، وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين – قد ألفوا البطالة، واستثقلوا العمل، واستوعروا طريق الكسب، واستلانوا جانب السؤال والهدية، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم، واستخفوا عقولهم وأديانهم: من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة،

---

[1] – التفكير فريضة إسلامية : عباس محمود العقاد، دار الهلال ، القاهرة، ١٩٨٨م ، ص١٢٤ .

وانتشار الصيت، واقتناص الأموال بطريق السؤال، تعللاً بكثرة الأتباع، فلم يكن لهم فى الخانقاهات متنزهات، وربما تلقفوا ألفاظاً مزخرفة من أهل الطامات، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم فى خرقتهم وفى سياحتهم وفى لفظهم وعبارتهم وفى آداب ظاهرة من سيرتهم، فيظنون بأنفسهم خيراً ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويعتقدون أن كل سوداء تمرة، ويتوهمون أن المشاركة فى الظاهر توجب المساهمة فى الحقائق، فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم ؟ فهؤلاء بغضاء لله [1].

كما قام الإمام الغزالى بنقد بعض الطوائف الصوفية، وبيّن كثيراً من تصوراتهم المغلوطه وسلوكياتهم الخاطئة، حينما وضعهم ضمن أصناف المغترين فى كتابه " ذم الغرور" من ربع المهلكات.

٢- فساد القدوة فى الطريق الصوفى: أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان شيخاً له ليأخذ بيده فى هذا الطريق الصعب، ويصل به إلى غايته المنشودة، يقول الإمام الغزالى:" المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لامحالة ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لامحال، فمن سلك سبل البوادى المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر،

---

[1] – إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالى ، مكتبة مصر، القاهرة ،١٩٨٨م ، جـ٣، ص ٣١٥.

فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية"[1].

وبناءً عليه فإن الشيخ هو الذى يحدد لمريديه طريق الوصول إلى الله تعالى ، ويساعدهم على السير فيه، ولهذا يُعد الشيخ فى الطريق الصوفى بمثابة الأساس الذى يرتكز عليه، فهو إن صلح صلح الطريق بكامله، وإن فسد فسد الطريق، ومن ثم يجب أن يكون قدوة لغيره حتى يكون مؤهلاً لهذه القيادة الروحية ومؤثراً فى أتباعه من المريدين .

يقول الإمام أبو العزائم واصفاً هذا الشيخ الذى يجب على المريدين أن يبحثوا عنه ويقتدوا به، بأنه هو:" الرجل الحى، العالم بكتاب الله وبسنة رسول الله – ﷺ – ، والعالم بتزكية النفوس وتخليصها من أمر اضها ورعوناتها، والعالم بالأخلاق المحمدية بها، الممنوح الحال الذى به يجرد النفوس من أو حال التوحيد، العالم بعلوم اليقين ومشارب الأبرار ومشاهد المقربين، العالم بحقيقة التوحيد الخالص من الشرك الخفى والأخفى، فإذا وجد هذا الرجل، فهو إمام أهل عصره جميعهم، والواجب عليهم جميعاً أن يتركوا الحظ والهوى، والعلو فى الأرض، والتعصب للأباء والأجداد، إقبالاً على الله تعالى "[2] .

أما هؤلاء المشايخ من المجذوبين، والذين يعملون أعمالاً لاتقبلها العقول إطلاقاً، فهؤلاء لا يصلحون أن يكونوا أئمة يقتدى بهم ولا هداة مرشدين للمريدين السالكين طريق الله تعالى، ولعل فساد هذه القدوة فى الطريق

---

[1] – المرجع السابق ، حـ٢، ص ٩٢ .

[2] – مذكرة المرشدين والمسترشدين: محمد ماضى أبو العزائم، دار المدينة المنورة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٣،ص ٦٢ .

الصوفى فى هذه الأيام من أهم الدوافع الأساسية التى أدت إلى انتشار البدع والانحرافات فى التصوف، كما أدت إلى تهاون المريدين والأتباع فى أداء الفروض والشرائع طالما أن الذين يقتدون بهم لا يؤدون الصلاة ولا يأمرون بالمعروف أو ينهون عن المنكر، بل وربما يفعلون أفعالاً تتصادم مع تعاليم الدين، ومن ثم تنتشر البدع والانحرافات وتنسب إلى التصوف الإسلامى وهو منها برئ .

٣- **بعض الطرق الصوفية وتشويهها للتصوف :** الطرق الصوفية هى المدارس الروحية التى نشأت فى الإسلام من أجل تربية السالكين التربية والإرشاد الصحيحين، وكل مدرسة فى هذه المدارس عرفت باسم مؤسسها، ولها منهجها فى التربية والإرشاد، وقد تفرعت هذه الطرق وانتشرت فى العالم الإسلامى كله لتؤدى رسالة الهداية إلى طريق الله سبحانه وتعالى.

ومن ثم فهذه الطرق هى أشبه بمدارس تتحد غايتها فى التعليم الروحى، وتختلف وسائلها العملية فيه باختلاف العلم الذى يجتهد فى أن يصنع لتلاميذه قواعد ورسوماً خاصة يرى أنها أفعل فى تعليمهم، والحقيقة أن الغاية القصوى من الطريق الصوفى هى غاية خلقية تتمثل فى إنكار الذات والصدق فى القول والفعل والصبر والخشوع ومحبة الغير والتوكل، وغير ذلك من الفضائل التى دعا الإسلام إليها وكانت محوراً دارت حوله أبحاث التصوف النظرى[1] .

---

[1] - الطرق الصوفية فى مصر: أبو الوفا التفتازانى، رسائل المجلس الأعلى للطرق الصوفية، مطبعة الأمانة، القاهرة ١٩٩١م ص ١٩ ، وانظر : الطرق الصوفية وأثرها الإصلاحى فى المجتمع: جمعة محمد الأحول، من أعمال المؤتمر الدولى العاشر للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة فى الفترة من ١٩- ٢٠ أبريل ٢٠٠٥م، ص ٢٨٤ .

أما الطرق الصوفية الموجودة الآن بين ظهر انينـــا، فهـــى الـــصورة أو الصور التى آل إليها التصوف الإسلامى الذى نتحدث عنه، وهى صـــورة أو صور باهته، كما أنها طرق ابتعدت كثيراً عن جادة الطريق حتى لم يبق لهـــا من سمات التصوف الحقيقى إلا بعض الشكليات، فتخلت عن جوهر التصوف وتمسكت منه بمجموعة قشور أو أهداب فقدت معها مهمتها التى قامـــت مـــن أجلها .

المهم أن هذه الطرق بما يفعله بعض أبنائها من بدع وأحـــوال منكـــرة – كان لها دور كبير فى ذلك التدهور والضعف الـــذى أصـــيب بـــه التـــصوف الإسلامى، ومع هذا يمكننا القول بأن هذه الطـــرق – وإن كانـــت مـــن بقايـــا التصوف – غير أنها لاتعبر عنه، ولا يمكـــن أن نعتبرهـــا هـــى التـــصوف الإسلامى الذى يمثل من الإسلام روحه وجوهره، وكان من الممكن أن يكـــون لهذه الطرق ورجالها أثر كبير فى شتى مجالات الحياة، لـــو قـــاموا بمراســـم التصوف على حقيقته وأدوا تعاليمه كما يجب[1] .

٤- الغلو فى ادعاء الكرامات للمشايخ: الناظر فى كتب الصوفية يجد أن الكرامة من الأمور الهامة التى يجب أن يسعى إلى تحصيلها وطلبها، وأنها دليل الولاية عندهم، كما أنها ذات مكانة بالغة الدقة والتأثير فى التصوف الإسلامى، حتى جعلها ابن خلـــدون مركـــزاً لواحـــد مـــن مواضيع أربعة هى المكونة للتصوف والمحـــددة كـــذلك للمجـــالات الرئيسية التى توجه النقد فيها إلى التصوف، يقول ابن خلدون محـــدداً

[1] – انظر: أصول الملامتية وغلطات الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمى ، تحقيـــق :عبـــد الفتاح الفاوى، مطبعة الارشاد ، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٢٠٩ .

المجالات التى نقد فيها الفقهاء التصوف:" إن كلامهم فى أربعة مواضع: أحدها الكلام على المجاهدات، وثانيها الكلام فى الكشف، وثالثها التصرفات فى العوالم والأكوان بأنواع الكرامات، ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثيرين من أئمة القوم يعبرون عنها فى اصطلاحهم بالشطحات"[1] .

ويعتقد البعض أن التصوف يرتبط بخوارق العادات، وأن الإنسان لكى يصبح متصوفاً لابد أن تظهر على يديه خوارق العادات، وهذا مما جعل أصحاب البدع فى التصوف يدعون أموراً لا أساس لها من الصحة، بل ويبالغون فيها، حتى يوهموا من حولهم من الناس بأنهم صاروا صوفية، ومن ثم يجب على الآخرين اتباعهم.

وقد محّص الشيخ عبد الحليم محمود – رحمه الله- هذا الاعتقاد الخاطئ بقوله :" إن الذين يربطون بين التصوف من جانب والكرامات وخوارق العادات من جانب آخر كثيرون، ولكن التصوف ليس كرامات ولا خوارق للعادات، إنه شئ يتجاوز الكرامات وخوارق العادات، إن هذه الكرامات مسألة لا يأبه بها الصوفية كثيراً، بل يعتبرونها من الأشياء اليسيرة التى تبعث السرورفى قلب من يجريها الله على يديه، ولكنه إذا فرح بها واكتفى، تدل على أنه لم يبلغ بعد فى التصوف قدماً ثابتاً ولا درجات ممتازه"[2] .

---

[1] – مقدمة ابن خلدون : عبدالرحمن بن خلدون ، دار ابن خلدون ، الأسكندرية ، ص ٣٣٢ .

[2] – المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى مع أبحاث فى التصوف :" د/ عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة، د.ت ص ٢٢٩ .

وواقع الأمر أن الزهاد الأوائل – رضوان الله عليهم- كانوا لا يحفلون بوقوع الكرامة ويرونها من العوائق والمحن، بل كانوا يحقرون من شأنها، ويرون أن الاستقامة خير وأفضل من الكرامة يقول الإمام أبو الحسن الشاذلي:" ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة، فمن أعطيهما وجعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب، أوذو خطأ في العلم بالصواب"[1] ، ولما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الكرامات ؟ أجاب بقوله:" إن الكرامات شئ ينقضي لوقته، ولكن الكرامات أن تبدل خُلقاً مذموماً من أخلاقك بخلق محمود"[2] .

هذه هي نظرة كبار الصوفية للكرامة، أما نظرة أدعياء التصوف في العصر الحاضر للكرامة فمختلفة تماماً، حيث نجدهم يبالغون في ادعاء الكرامات وفي نسبتها إلى المشايخ، حتى شاع عن مشايخ الصوفية وأوليائهم من الإحياء والإماتة وغيرهما من الكرامات التي تضاهي أو تفوق المعجزات، ومن المؤسف حقاً أن مثل هذه الافتراءات شائعة ومتداولة في كتب التصوف بكثرة، وهذا مما ساعد على دخول البدع والانحرافات في التصوف الإسلامي من جانب، وعلى رميه بالتهم والدعاوى الكاذبه الواحدة تلو الأخرى من جانب آخر .

٥- **المغالاة في حب الشيخ :** تُعد هذه الظاهرة من أهم الأسباب الأساسية في انتشار البدع والخرافات في التصوف الإسلامي، حيث إننا نجد

---

[1] – الطرق الصوفية في مصر: عامر النجار، مرجع سابق ، ص ١٣٨ .

[2] – العارف بالله سهل بن عبد الله التستري : د/ عبد الحليم محمود ، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ص١٣٢.

أدعياء التصوف يجلسون فى وسط العامة من الناس، ويذكرون اسم ولى من الأولياء ويروون عنه الأقاصيص التى تفيد أنه ينفع ويضر، وأن من يتبعه يكثر ماله وأولاده، وأن من زار قبره تقضى حوائجه ويموت أعداؤه، ويذكرون عنهم من الكرامات ما هو حق وباطل، ومن هنا تقع الأضرار الكثيرة التى تأتى من وراء المغالاة فى حب الشيوخ والأولياء[1].

ولا نستطيع أن نحدد الضرر الذى ينشأ من جراء هذا الحب عندما يقيم الأتباع والشيوخ الموالد، التى يحتفلون فيها بميلاد من ينتسبون إليهم، فإذا غضضنا الطرف عن مشروعية الاحتفال بهذه الموالد، وجئنا لنحكم بالكتاب والسنة على ما يحدث فى هذه الموالد من اختلاط الرجال بالنساء، واستعمال المعازف والغناء، وشرب المحرمات، والغلو فى مدح رسول الله - ﷺ- ، هذا مع تخلف كثير ممن يحضرون هذه الموالد عن صلاة الجماعة، بل لقد بلغ الجهل ببعضهم فى أنهم يعتقدون أن الرسول - ﷺ- يحضر هذه الاحتفالات[2].

وبذلك تتيح هذه الموالد الفرصة لأدعياء التصوف فى أن يمارسوا ما تمليه عليهم نفوسهم المريضة والخبيثة من ارتكاب للمعاصى وفعل للمنكرات التى لا يقرها الشرع ولا يرضى عنها أهل التصوف أنفسهم .

---

[1] - انظر : مذكرة المرشدين والمسترشدين محمد ماضى أبو العزائم، دار المدينة المنورة، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٣م، ص٩٨ .

[2] - التصوف الإسلامى وأهم الاعتراضات الواردة عليه. محمد عبد اللطيف العبد، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م، ص ١٢٠ .

٦- اتجاه الصوفية إلى الرمزية فى التعبير : إن الصوفية على العموم واجهوا معارضات وخصومات من قبل الفقهاء الذين بدت مواقفهم المعارضة للصوفية واضحة منذ القرنيين الثالث والرابع الهجريين، بعد التمييز بين الفقه والتصوف على أساس منهجيٍ يقوم على اعتبار أن الفقه علم لظاهر الشريعة، والتصوف علم لباطن الشريعة، وكان غاية الصوفية من الوقوف على باطن الشريعة هو الوصول إلى الحقيقة، إلى معانى الغيب التى تتمثل لهم عبر مناجاتهم وتأملاتهم فى الله تعالى، ولهذا استخدموا الرمز والتأويل للتعبير عن مكنوناتهم ونزعتهم الروحية وطريقهم هو الذوق والكشف والإلهام[1] .

ويظهرنا الإمام القشيرى – رحمه الله– على الدوافع التى دفعت أولئك الصوفية إلى الاتجاه إلى الرمزية فى التعبير قائلاً :" اعلم أن من المعلوم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها انفردوا بها عمن سواهم، وتواطؤا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة فى الوقوف على معانيهم بإطلاقها، وهذه الطائفة ( يقصد الصوفية) مستعملون ألفاظاً فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم فى طريقتهم، لتكون معان ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلها، إذ ليست

---

١ – منهج التأويل فى الفكر الصوفى: نظلة الجبورى، مكتبة ابن تيمية، البحرين، ط١، ١٩٨٨م، ص٤٨ .

حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معانٍ أودعها الله – تعالى – قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم "[1].

وقد اتجه الصوفية في القرنين الثالث والرابع الهجريين إلى أسلوب الرمز في التعبير، وذلك عندما توجهت أنظارهم إلى الاطلاع على الفلسفات والمذاهب المختلفة، فاعتمدوا على هذا الأسلوب كوسيلة للجمع والتوفيق بين العقائد الدينية المعتمدة على نصوص الشرع والمذاهب والنظريات المختلفة التي استمدوها من الفكر الأجنبي، وعبر هذا التأويل الرمزي لنصوص الشريعة الظاهرة استطاع الصوفية التوغل منه إلى أعماق العقائد الدينية الإسلامية بغية التوفيق بينها وبين النتائج الفلسفية الصوفية التي توصلوا إليها عبر مذاهبهم، وقد اعتمد فلاسفة التصوف على الفكر الأجنبي وخصوصاً على الأفلاطونية التي ترى أن المعرفة الحقة اليقينية لا تدرك إلا بالتأويل الباطني العميق والمجاهدة النفسية، ومن ثم دخل التصوف الإسلامي النظريات والأفكار المنحرفة من وحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها[2].

٧- **الشطحات التي نطق بها بعض الصوفية:** إذا كان هناك صوفية متزنين في التعبير عن حقائق التوحيد، ومؤثرين للبقاء على الفناء، وللصحو على السكر، فإن ثمة صوفية آخرين غلبت عليهم أحوال السكر والفناء، والجمع في حبهم لله، ونطقوا بعبارات غريبة عرفت

---

[1] – الرسالة القشيرية: أبو القاسم عبد الكريم القشيري، طبعة مكتبة محمد على صبيح، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٥٢ .

[2] –نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها: عرفان عبد الحميد فتاح، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص٧٧، ٧٨ .

بالشطحات، وأداهم ذلك إلى إعلان اتحادهم بالله، أو حلـول الحقيقـة الإلهية فيهم، وأغلب الظن أنهم لم يقصدوا اتحاداً أو حلـولاً حقيقيـاً، ولكن عباراتهم ملتبسه، وقد حكم عليهم بعض الفقهاء بالخروج عـن العقيدة الإسلامية، والتمس بعض الصوفية تأويلات لأقوالهم تجعلهـا متمشيه مع الشريعة، وتوقف البعض فى الحكم عليهم [1].

على أنه يجب أن يوضح فى الاعتبار أن مثل هذه العبارات قد نطق بهـا أصحابها وهم فى حالة نفسية غير عادية نتيجة معاناة من نوع خاص، ولـذلك يلقى الإمام الطوسى ضوءاً على الظروف النفسية المحيطة بالشطح قـائلاً :" الشطح كلام يترجمة اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالـدعوى"[2]، ويقول:" إن الشطح فى لغة العرب هو الحركـة، يقـال: شـطح يـشطح إذا تحرك... فالشطح لفظة مأخوذه من الحركة لأنها ( عنـد الـصوفية) حركـة أسرار الواجدين إذا قوى وجدهم، فعبروا عن وجدهم ذلك بعبـارة يـستغرب سامعها"[3].

كما يجب أن نعلم بأنه من أهم العوامل التـى أثـارت الفقهـاء والعلمـاء ومفكرى الإسلام، بل وجمهور المسلمين ضد الصوفية، تلك الشطحات التـى نطق بها بعض أئمة التصوف، والتى تحمل بذوراً لنظريات وتوجهات صوفية

---

١ – مدخل إلى التصوف الإسلامى : أبو الوفا التفتازانى ، مرجع سابق ، ص١١٧ .

٢ – اللمع:السراج الطوسى: تحقيق د/ عبد الحليم محمود،وطه عبد الباقى سرور، القاهرة ،١٩٦٠م ، ص٤٢٢، ٤٥٢.

٣ – اللمع : السراج الطوسى: تحقيق د/ عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقى سرور، القاهرة ،١٩٦٠م ، ص٤٢٢، ٤٥٢ .

جديدة تعارض – فى ظاهرها على الأقل – أصول العقيدة الإسلامية فى التوحيد والتنزيه المطلقين لله تعالى .

وكان طبيعياً أن يضيق علماء السلف والفقهاء والمتكلمين بالتصوف الذى تسللت إليه النظريات الفلسفية الضالة فى المعرفة والوجود، ونطق بعض رجاله بعبارات ظاهرها الكفر والزندقة، فأبعدته، عن أبسط قواعد العقيدة الدينية البسيطة، ومن ثم راح هؤلاء العلماء والمفكرون ينظرون إلى التصوف، من خلال هؤلاء الصوفية، نظرة سخط وريبة وحذر، ويضمرون العداء له ويواجهون رجاله بالنقد والتفنيد لمذاهبهم وأقوالهم[1] .

٨- **الخلط بين الصوفية والباطنية:** يخلط كثير من العامة بين الصوفية والباطنيه، بل ويختلط الأمر على بعض المثقفين فى التفرقة بينهما، وهذا يرجع فى تصورنا إلى تأويل المعانى الصوفية إلى غير ما هدفت إليه، وتفسير ألفاظ الصوفية. وتعبيراتهم تفسيراً حرفياً قاصراً يبتعد عن حقيقة المعنى المقصود .

وكان من نتائج هذا الخلط والاختلاط أن ظهر فى التصوف الإسلامى انحرافات عديدة ودعوات هدامة، كان من أخطرها الدعوة إلى رفع التكاليف الشرعية، ولقد تسببت هذه الانحرافات وتلك الدعوات الهدامة إلى اعتبار الصوفية إحدى الفرق الباطنية، والتصوف عنها براء، إذ أنها جميعاً فرق ضالة، انحرفت عن طريق الله وهدى القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ .

---

[1] – قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل ،ط٢، القاهرة،١٩٥٨م، ص١٢٩، وانظر : فى نقد الصوفية : محمد أبو سعدة ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص٩ .

ونختم الحديث عن هذه النقطة بجواب بديع للشيخ رشيد رضا يبرئ فيه التصوف من أخطاء المنتسبين إليه، بل ويرى أن من أدخلوا تلك الانحرافات والدعوات الهدامة إلى التصوف هم نفر من الباطنية، يقول:" والذى استنبطه من طول البحث والمقارنة، أن أكثر الذين خالفوا نصوص الشريعة بأقوالهم وكتبهم من لابسى التصوف هم باطنية فى الحقيقة، وأقلهم قد مرق من الدين بشبهات عرضت له من تلك الفلسفات الباطلة، التى كانت رائجة فى تلك القرون، ثم قلدهم فى هذه الأباطيل كثير من المسلمين، وهم لايعرفون أصلها، ولا الغاية التى وضعت لتؤدى إليها"[1] .

تلك هى أهم العوامل والأسباب الحقيقة التى ساعدت مجتمعة على وجود الانحرافات والدعوات الهدامة فى التصوف الإسلامى والتى من بينها دعوى إسقاط التكاليف الشرعية موضوع هذا البحث .

---

١ – الاتجاه السلفى بمصر فى العصر الحديث وموقفه من التصوف : أحمد قوشتى عبد الرحيم، من أعمال المؤتمر الدولى العاشر للفلسفة الإسلامية بعنوان ( مناهج العلوم الإسلامية بين التقليد والتجديد : الحلقة الثانية: التصوف بين الواقع والمأمول) والمنعقد فى الفترة ١٩– ٢٠ أبريل ٢٠٠٥م ، جامعة القاهرة ، كلية دار العلوم .

## المبحث الثالث

## موقف الصوفية من التكاليف الشرعية

جاء الدين الإسلامي بتكاليف عديدة من أجل صلاح المجتمع وصلاح الفرد، وهذه التكاليف يتبين من اسمها أن فيها شيئاً من المشقة والكلفة، وخصوصاً على هؤلاء الذين لم يتذوقوا الصلة بالله تعالى، ولمّا كان في هذه التكاليف من المشقة والتعب حاول البعض التخلص منها بشتى الوسائل أو التأويلات المنحرفة .

وقد تعددت الآراء وتضاربت الأقوال حول حقيقة موقف الصوفية من التكاليف الشرعية، فبينما عُرف عن الكثير منهم شدة تمسكهم بالشريعة والعمل بها، سمع عن بعض المنتسبين إلى التصوف تهاونهم في القيام بها، بل والذهاب إلى سقوطها عنهم بحجة الوصول إلى درجة الحقيقة التي تبيح عندهم سقوط التكاليف الشرعية، حيث إنهم يزعمون أن التكاليف الشرعية ما هي إلا وسيلة توصل إلى الغاية، فإذا تحققت الغاية سقطت الوسيلة .

إذاً فنحن أمام مشكلة تعد من أخطر المشكلات في الأوساط الصوفية، ألا وهي دعوى إسقاط التكاليف الشرعية، ومما لاشك فيه أن القول الفصل في أي مشكلة من المشكلات إنما يرجع فيه إلى الذين يمثلون الموضوع الذي تنسب إليه المشكلة، وإذا رجعنا إلى زعماء التصوف الذين لا يختلف في زعامتهم اثنان، والذين يمثلون التصوف الإسلامي حقاً، نجدهم – سواء في ذلك القدماء منهم والمحدثون – يدعون إلى ضرورة التمسك بالكتاب والسنة والتزام

الفرائض والسنن والعمل بها، ولقد التزموا بذلك فعلاً، وعاشوه حياة ودعوا إليه طريقاً وعقيدة، ولهم في ذلك أقوال وأفعال ومواقف .

ولابد من الحديث عن مواقف الصوفية وأقوالهم في هذا الموضوع – موضوع الاتباع والالتزام بالشريعة– وذلك لما وقر في أذهان بعض الناس من عدم التزام الصوفية للشريعة .

فهذا أبو يزيد البسطامي الذي كان له في هذا الجانب مواقف كثيرة تذكر، قال لأحد جلسائه:" قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية – وكان رجلاً مشهوراً بالزهد – يقول رفيق أبي يزيد البسطامي : فمضينا إليه فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة، فانصرف أبو زيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله – ﷺ – فكيف يكون مأموناً على مايدعيه"[1]

فالبسطامي رفض أن يسلم على من خالف أدباً من آداب الشريعة التي أمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتبره غير مأمون على ما يدعيه لكونه مخالفاً لشريعة الله تعالى .

ثم نراه في موضع آخر يبين حرصه على التزام من يُعطى الكرامات بالحدود وآداب الشريعة، بل ويضع مقياساً للمريدين والسالكين لمعرفة الشيخ، فيقول :" لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا

---

[1] – الرسالة القشيرية : أبو القاسم عبد الكريم القشيري، طبعة مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة ، ١٩٦٦م ص٢٣ .

تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدوه عند الأمر والنهى وحفظ الحـدود وآداب الشريعة" [1]

وللصوفى عند أبى يزيد صورة جميلة لها من الدنيا نصيب، ولهـا مـن الآخرة حظ وافر، وهى صورة تسير على طريق القرآن والسنة، إنه سئل عن الصوفى فقال:" هو الذى يأخذ كتاب الله بيمينه، وسنة رسوله بشماله، وينظـر بإحدى عينيه إلى الجنة وبالأخرى إلى النار، ويتزر بالدنيا ويرتدى بـالآخرة ويلبى من بينهما للمولى : لبيك اللهم لبيك "[2]

وأما سهل بن عبد الله التسترى[3] • فقد عبَّر عن أصول التصوف بقوله:" أصول طريقتنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنه رسـول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحـلال، وكيـف الأذى، واجتنـاب الآثـام، والتوبة، وأداء الحقوق"[4] ، فمن خرج من هذه الأصـول فلـيس صـوفياً ولا ينسب إلى أهل التصـوف .

---

[1] – الرسالة القشيرية : أبو القاسم القشيرى ، مرجع سابق ، ص٢٤ .

[2] – أبو يزيد البسطامى : د/ عبد الحليم محمود ، دار التراث العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص٤٦ .

[3] – • هو أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى ، نسبة إلى تُستَر من خوزستان، وهو أحد أئمة الصوفية ومن أكابر علمائهم المتكلمين فى علوم الإخلاص والتوحيد، لقى ذا النون المصرى ، وتوفى سنة ٢٨٣هـ ( الطبقات الكبرى للشعرانى حـ١، ص٦٦).

[4] – طبقات الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمى، تحقيق : أحمد الشرباص ، مطبعة الشعب ، القاهرة،ص ٤٩ .

بل إنه رحمه الله كان يتمثل كتاب الله ويعيشه حقيقة، فقد روى أنه صلى صلاة العتمة فقرأ قوله تعالى ( وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ) (الإنسان : آية :٢١) فجعل يحرك فاه كأنه يمص شيئاً، فلما فرغ من صلاته قيل له أتشرب في الصلاة؟ فقال والله لو لم أجد لذته عند قراءته كأني عند شربه مافعلت ذلك[1] .

ويقول الإمام الجنيد سيد هذه الطائفة، على حد تعبير الإمام القشيرى :" من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة"[2] .

ويقول أيضاً :" الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه"[3] .

فالإمام الجنيد وضّح اتباعه للشريعة مبيناً أن الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اتبع الرسول ﷺ في طريقته وشريعته، لأن في ذلك هدايته، ثم وضح مدى التزامه بالشريعة في التزامه بأساسها وهو القرآن والسنة، لأن العلم الذى يطلبه مقيد بهما .

---

[1] – أصول الملامتية وغلطات الصوفية: أبو عبد الرحمن السلمى، تحقيق : عبد الفتاح الفاوى ، مطبعة الارشاد ، القاهرة ،١٩٨٥م ،ص١٢٠ .

[2] – طبقات الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمى ، مرجع سابق ، ص٣٧ .

[3] – الرسالة القشيرية : مرجع سابق ،ص٣٢ ، وانظر : طبقات الصوفية ، مرجع سابق ، ص٣٧ .

وذكر رجلٌ المعرفة أما الجنيد ،وقال الرجل للجنيد:" من أهـل المعرفـة أقوام يقولون : إن ترك الحركات من باب البر والتقرب إلـى الله عزوجـل ( يعنى ترك الأعمال كالصلاة والصوم وغيرها)، فقال الجنيد: إن هذا قول قـوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيم، والذى يزنى ويسرق أحسن حالاً من الذى يقول هذا، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعـالى وإليـه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرذرة إلا أن يحال بـى دونها"[1] .

وإذا ما وصلنا إلى الإمام أبى الحسن الشاذلى[2]" نجده يقول:" ما ثم كرامه أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة الكتاب والسنة، فمن أعطيهما وجعل يـشتاق إلى غيرهما، فهو عبد مفتر كذاب، أو ذو خطأ فى العلم والعمـل بالـصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا، فجعل يشتاق إلى سياسـة الـدواب وخلع الرضا"[3] .

---

[1] – الرسالة القشيرية : مرجع سابق ، ص٣١ .

[2] – هو أبو الحسن على بن عبد الله الشاذلى ، نسبه إلى قرية شاذلة إحدى قرى تونس التى هاجر إليها، ولد سنه ٥٩٣هـ واتخذ الأسكندرية مقراً له وفيها تزوج ، وسلك مسلك التصوف واجتهد فيه وشرع حتى أصبح شيخ عموم الطريقة الشاذلية المنسوبة إليه ، توفى سنه ٦٥٦هـ ( الموسوعة الصوفية: عبد المنعم الحفنى. مرجع سابق ص٢٢٩) .

[3] – فى صحبة الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى : عبد الرحمن حسن محمود ، مكتبة عالم الفكر ، القاهرة ، ١٩٨٩م ، ط١، ص٤٩ .

ويقول أيضاً:" إذا عارض كشفك الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام ولا المشاهدة"[1].

ويقول ابن عطاء الله السكندري[2] ** رحمه الله تعالى :" من ألزم نفسه آداب الشريعة، نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلي الله عليه وسلم في أوامره وأفعاله وأخلاقه، فمن زعم أن له مع الله حالاً يخرجه عن حد العلم الشرعي ، فهو ضال عن الحق"[3].

ويقول الشيخ إبراهيم الدسوقي [4]* :" طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، فمن أحدث فيه ماليس في الكتاب والسنة فليس منا، ولا من إخواننا ، ونحن بريئون منه في الدنيا والآخرة ، ولو انتسب إلينا بدعواه"[5].

---

[1] – في صحبة الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربي : عبد الرحمن حسن محمود ، مكتبة عالم الفكر ، القاهرة ، ١٩٨٩م ، ط١، ص٤٩

[2] – ** هو أحمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، نسبة إلى الأسكندرية حيث ولد وعاش فيها إلى أن غادرها إلى القاهرة بعد وفاة شيخه أبي العباس المرسي ، من أشهر مصنفاته : الحكم العطائية ، ولطائف المنن، توفي بالقاهرة سنة ٧٠٩هـ الموسوعة الصوفية : عبد المنعم الحفني ، مرجع سابق ، ص ٢٩٥ .

[3]– المرجع السابق ، ص٥١ .

[4] – * هو برهان الدين إبراهيم بن عبد المجيد بن عبد العزيز ولد في قرية" مرقوس" بالغربية في مصر سنة ٦٣٣هـ وعاش معظم حياته في دسوق وهو شيخ الخرقة البرهانية ، توفي عن عمر يناهز ٤٣سنه ( الطبقات الكبرى للشعراني ، جـ١، ص١٤٣) .

٥ – في صحبه الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربي : عبد الرحمن حسن محمود ، مرجع سابق ، ص٥١ .

فإذا ما انتهينا أخيراً إلى الإمام الغزالى – رحمه الله – فإننا نجده يقـول فى شئ من التفصيل:" واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمـدعى فيـه كثير، ونحن نعرفك علامته، وذلك أن تكون جميع أفعالك الاختيارية موزونـة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجامـاً، إذا لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة النوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض ؟"[1].

بل إننا نجد الصوفية يتشددون فى الأمر إلى درجة أنهم يعتبرون أن مـن أخل بفريضة أو ضيعها يوشك أن يُضيع دينه ويسقط فى مهاوى البدعة، وفى هذا يقول أبو محمد عبد الله بن منازل[2] ** :" لم يضيع أحـد فريـضة مـن الفرائض إلا ابتلاه الله تعالى بتضييع السنن، ولم يبل أحد بتـضييع الـسنن إلا أوشك أن يبتلى بالبدع "[3]

وليس الصوفي متمسكاً بالشريعة فحسب ، بل إنه يتفوق على غيره فى هذا التمسك، يقول أبو العباس أحمد بن أحمد بن زروق[4] *** :" نظر الـصوفى للمعاملات أخص من نظر الفقيه، إذ الفقيه يعتبـر مـا يـسقط بـه الحـرج، والصوفى ينظر ما يحصل به الكمال، وأخص أيضاً من نظر الأصـولى، لأن

---

[1] – المنقذ من الضلال : أبو حامد الغزالى، دار النصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط٧، ١٩٧٢م ، ص١٣١

[2] – ** هو أبو محمد بن عبد الله بن منازل، شيخ الملامتية، صحب حمدون القصار، وكان عالماً، وكتب الحديث الكثير، توفى بنيسابور سنه ٣٢٩هـ ( الرسالة القشيرية، مرجع سابق ، ص٤٤.

[3] – الرسالة القشيرية : مرجع سابق ، ص ٤٤ .

[4] – *** هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى، أبو العباس المعروف بزروق المالكي الصوفي ، ولد عام ٨٤٦هـ ، من أئمة علماء الصوفية ترك عدداً بن المؤلفات الهامة منها كتاب (قواعد التصوف)، توفى فى طرابلس سنه ٨٩٩هـ ( هدية العارفين : إسماعيل باشا البغدادى ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت، عن طبعة استانبول ،١٩٥١م، جـ١، ص١٣٦ .

الأصولي يعتبر ما يصح به المعتقد، والصوفي ينظر فيما يتقوى بـه اليقـين، وأخص أيضاً من نظر المفسر وصاحب فقه الحديث لأن كلاً منهمـا يعتبـر الحكم والمعنى ليس إلا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتـوه وإلا – أي إذا أهمل ما أثبتوه – فهو باطنى خـارج عـن الـشريعة فـضلاً عـن المتصوفة"[1].

ويطول بنا المقام لو أردنا أن نسجل أقوال الصوفية التي يوجبـون فيهـا الالتزام والتمسك بالشريعة وبتكاليفها، سـواء فـي ذلـك المتـأخرون مـنهم والمتقدمون، ويكفي برهاناً على هذا أن نسجل هنا دسـتور الـصوفية الـذى ارتضوه طريقاً لهم كما سجله الإمام القشيرى في رسالته فقال :" أنهم مجمعون على تعظيم الشريعة، متصفون بسلوك طريق الرياضة، مقيمون على متابعـة السنة، غير مخلين بشئ من آداب الديانة ، متفقون على أن مـن خـلا مـن المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفتريـاً على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه مفتوناً، هلك في نفسه وأهلك من اغتر بـه ممن ركن إلى أبا طيله"[2].

وبهذا يظهر لنا أن الصوفية في عبادتهم ومعاملاتهم يتمـسكون بكتـاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وهم على علم ويقين بأن مثلهم الأعلى الذى يسيرون على هديه ويقتفون أثره هو رسول الله ﷺ ، فلقد كان حريصاً

[1] – قواعد التصوف : الشيخ أبو العباس أحمد بن زروق : طبعة القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص٣٣ .

[2] – الرسالة القشيرية: مرجع سابق ، ص

على أداء الشعائر حتى آخر لحظة من حياته، كما كان حريصاً علـى دعـوة قومه وعشيرته والناس أجمعين على التمسك بتعاليم الإسلام وتشريعاته.

ولقد قصدت من عرضى لهذه الأقوال الكشف عن حقيقة التصوف وعـن الصوفية المعتدلين الذين ربطوا تصوفهم بكتاب الله تعالى وسـنه رسـول الله ﷺ، وأنه ينبغى علينا ونحن طلاب علم ألا نسير خلف من يهاجم أى إنـسان بدون التحرى والبحث عن أقواله ومدى حقيقة نسبتها إليه .

## المبحث الرابع

## دعوى إسقاط التكاليف الشرعية وموقف الصوفية منها

يقول الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود :" في كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء، نجدهم في الميدان الديني، وفي الميدان السياسي، وفي الميدان العلمي، ونجدهم كذلك في ميدان التصوف، وغرض هؤلاء الأدعياء معروف أنه الاستفادة المادية من أقصر الطرق، وكما لايضر الدين، ولايضر العلم، أن ينتسب إليه الأدعياء المزيفون، فكذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف، وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة وسمات معينة، وحدوداً من شأنها أن تظهر زيف المزيفين وباطل المبطلين، فكذلك الأمر في الجانب الصوفي، نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثاً عن بدعة ضالة، أخذت تتسرب إلى بعض النفوس التي لم تتعمق في الجانب الديني عموماً، ولا في الجانب الصوفي خصوصاً "[1].

هذه البدعة ترى أن الشخص الذي وصل إلى درجة معينة من المعرفة حيث تكشف له أستار الحجب، فإنه تسقط عنه التكاليف الشرعية، فليس عليه صلاة ولا صيام ولا حج، ولا غير ذلك من أنواع العبادات في الإسلام .

ودعوى إسقاط التكاليف هي دعوى لم يبتدعها من يزعمون التصوف في العصر الحديث، وليس لهم حتى فضل السبق في الباطل، إن كان السبق في الباطل له فضل، وإنما هي ضلالة قديمة نشأت في أوساط متحللة انتسبت إلى التصوف انتساباً باطلاً، والتصوف منها برئ .

---

[1] - المنقذ من الضلالة لحجة الإسلام الغزالي مع أبحاث في التصوف: د/ عبد الحليم محمود، مرجع سابق ص٢٨١ .

وقد ظهرت هذه الدعوة فى الفكر الإسلامى – بادئ الأمر – عند غلاة الشيعة ممن استباحوا لأنفسهم التمرد على سلطان الشريعة والتحلل من القانون الدينى والأخلاقى، والنزوع إلى الإباحية والإلحاد، وهى نزعة تأثر فيها هؤلاء الغلاة بديانات الفرس القديمة مثل المزدكية والزردشتية والزروانية[1] • ، فالمعمرية – وهم فرقة من الخطابية إحدى فرق الشيعة–" استحلوا الخمر والزنا واستحلوا سائر المحرمات، ودانوا بترك الصلاة والفرائض، وتأولوا على ما استحلوا قول الله تعالى ( يريد الله أن يخفف عنكم ) (النساء: ٢٨) والجناحية من فرق الشيعة:" استحلوا الخمر والميته والزنا واللواط وسائر المحرمات، وكانوا لا يرون وجوب الصلاة والزكاة والحج، ومن ثم أسقطوا وجوب العبادات، وتأولوا العبادات على أنها كنايات عمن تجب موالاتهم من أهل البيت، وقالوا فى المحرمات المذكورة فى القرآن إنها كنايات عن قوم يجب بغضهم كأبى بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة" واستحلت المنصورية – إحدى فرق الشيعة – النساء والمحارم، وزعموا أن الميتة ولحم الخنزير والخمر وغير ذلك من المحرمات حلال، وتأولوا المحرمات كلها على أسماء رجال أمرنا الله تعالى بمعاداتهم، وتأولوا الفرائض على أسماء رجال أمرنا

---

١ – •المزدكية هم أصحاب مزدك الذى أحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والهواء والكلأ، والزردشتية : نسبة إلى زرادشت وهى إحدى عقائد المجوس القائلة بأن النور والظلمة أصلان متضادان وهما مبدأ العالم، وحصلت التراكيب من امتزاجها، والزروانية: هى إحدى معتقدات المجوس الأصلية قالوا : إن النور أبدع أشخاصاً من نور كلها روحانية، نورانية، ربانية ولكن الشخص الأعظم زروان شك فى شئ من الأشياء، فحدث أهر من الشيطان يعنى إبليس من ذلك الشك ( الملل والنحل للشهرستانى تحقيق : محمد سيد كيلانى ، طبعة مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٩٧٦م ،جـــ١، ص ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٤٩) .

بموالاتهم، ومقصودهم من حمل الفرائض والمحرمات على أسماء رجال: هو أن من ظفر بذلك الرجل وعرفه فقد سقط عنه التكليف وارتفع عنه الخطاب ، ومثل هذا كثير[1].

ولقد سرت هذه النزعة التى لا تعترف بحدود الشرع المنزل إلى صفوف غلاة الصوفية وإلى المنتسبين إلى التصوف، حيث إنهم يعتبرون أن التكاليف ما هي إلا وسائل لسلوك الطريق، والواصل إلى نهاية الطريق لم يعد بحاجة إلى تلك الوسائل، لأنه لاسيرله ولا طريق له وبالتالى فلا تكليف عليه، ومن ثم نظروا إلى أنفسهم وعبادتهم فظنوها قد أوفت بهم إلى الجنة، وقد أدوا ما عليهم نحو الله تعالى من عبادة فى أيام خلت تكفى لباقى عمرهم من غير أن يقوموا بها، ومن ثم اعتبروا أنفسهم أصحاب تكاليف مؤداة وعبادة قد انفصلت، حتى استباحوا لأنفسهم ترك العبادة وإهمال الشعائر والغفلة عنها جميعاً .

يقول الإمام الغزالى مبيناً أصناف هؤلاء:" فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملى فلِمَ أتعب نفسى؟ وبعضهم يقول: قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا مالا يمكن، وإنما يغتر به من لم يجرب وأما نحن – أى مغرورى الصوفية – فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال، وبعضهم يقول:" الأعمال بالجوارح لا وزن لها وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، وبعضهم يزعمون أنهم قد ترفعوا عن رتبة العوام واستغنوا عن

[1] – انظر: الملل والنحل : للإمام الشهرستانى ، طبعة مصطفى الحلبى ، القاهرة ، تحقيق: محمد سيد كيلانى، ١٩٧٦م جـ١، ص١٧٩، ١٨٠، الفرق بين الفرق: عبد القاهر البغدادى، طبعة مؤسسة الحلبى، القاهرة ص١٤٩ وما بعدها، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : عرفان عبد الحميد عرفان، دار الجيل بيروت ، ط١، ١٩٩٣م ص٨٥ .

تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لاتصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها، ويرفعون أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم السلام"[1] .

وقد احتج أصحاب هذه الدعوة بحجج منها: الحجة الأولى : رأوا أنهم قد تجوهروا، وقالوا : لانبالى الآن ما عملنا، وإنما الأوامر والنواهى رسوم العوام، ولو تجوهروا لسقطت عنهم، وحاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة، والمراد منها ضبط العوام ولسنا نحن من العوام فندخل حجر التكاليف لأنا قد تجوهرنا[2].

الحجة الثانية: ومن هؤلاء من يحتج بقوله تعالى ( واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)" الحجر: ٩٩"، ويقولون معناها: اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة، فإذا حصل سقطت عنك العبادة، وربما قال بعضهم: اعمل حتى يحصل لك حال، فإن حصل لك حال صوفى سقطت عنك العبادة، وهؤلاء فيهم من إذا ظن حصول مطلوبه من المعرفة والحال استحل ترك الفرائض وارتكب المحرمات[3] .

---

[1] – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالى، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ج٢، ص٤٩٨ .

[2] – التصوف من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه، طبعة الرياض، السعودية، ط١، جـ١١، ص٤٠١ .

[3] –العبودية : شيخ الإسلام ابن تيميه، طبعة دار التأليف ، القاهرة،ط٣، ١٩٤٧م ، ص١٨،٢٠ ، وانظر: السلوك من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه، جـ١٠، ص ٤٣٤ .

الحجة الثالثة: وقد احتج كثير منهم بقصة موسى عليه السلام مع الخضر واحتجاجهم بها على وجهين:-

أحدهما : أن يقولوا: إن الخضر كان مشاهداً للحقيقة الكونية، فلذلك سقط عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والنهي الشرعي.

والوجه الثاني: إن بعض هؤلاء يظن أن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى، وأنه قد يكون للولي في المكاشفة والمخاطبة ما يستغني به عن متابعة الرسول في عموم أحواله أو بعضها[1] .

وقد فنّد شيخ الإسلام ابن تيميه هذه الحجج ورد عليها وأبطلها :-

فردّ على الحجة الأولى بقوله :" ماذا تعنون بقولكم ( تجوهرنا) فإن أرادوا أن النفس بقيت طاهرة صافية لا تنزع إلى الشهوات والأهواء، فمعنى ذلك أن النفس قد صارت مطيعة ليس فيها دواعي المعصية فتكون منقادة إلى فعل المأمور، ولا تميل إلى فعل المخطور وهذا ما يجعلها غير مأمورة.

وأما قولهم:" ( لا نبالي الآن ما عملنا) فنقول لهم: الذى تعملونه إن كان من جنس الأهواء المردية فقد تناقضتم في زعمكم أن نفوسكم لم يبق لها هدى، وإن كان من جنس الأعمال الصالحة فهذا لا ينكر فعلم أنهم متناقضون في كلامهم إلا إذا أرادوا بتجوهر النفس صفاءها وطهارتها من الأكدار البشرية .

وأما قولهم (حاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة) فلا ريب أن الله تعالى يبعث الأنبياء والرسل لما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد، وأن الله

---

[1] - التصوف من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه جـ١١، ص٢٣، ٤٢١، ٤٢٢ .

أمر العباد بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم، وأن الحكمة من بعث الرسل والأنبياء العلم والعمل .

ولما قولهم ( المراد منها ضبط العوام دون الخواص ولسنا من العوام) فالمراد بالكلمة الأولى: زندقة ونفاق، والثانية كذب واختلاق، فإنه ليس المراد من الشرائع مجرد ضبط العوام، بل المراد منها الصلاح باطناً وظاهراً للخاصة والعامة في المعاش والمعاد"[1] .

أما الحجة الثانية فقد بيّن أن احتجاجهم بالآية هو احتجاج عليهم لا لهم، لأن اليقين معناه الموت، وقال الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، وقرأ قوله تعالى ( واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) "الحجر :٩٩"، وذلك أن اليقين هنا: الموت وما بعده باتفاق المسلمين، أما أن يظن أن المراد: اعبده حتى يحصل لك إيقان، ثم لا عبادة عليك، فهذا كفر باتفاق أئمة المسلمين[2] .

ثم بيّن – رحمه الله– التزام المشايخ والزهاد الأوائل بالتمسك بالأمر والنهي على ضوء ما جاء به الكتاب والسنة فقال:" والمستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي والجنيد بن محمد وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر والشيخ حماد وغيرهم من المتأخرين، كانوا يلتزمون بهذا، فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن

---

[1] – التصوف من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه، مرجع سابق،جـــ١١، ص ٤١٣ وما بعدها

[2] – المرجع السابق ،ص٤١٩، ٤٢٠.

الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم"[1].

وأما الحجة الثالثة التي يستدلون فيها بقصة موسى - عليه السلام- مع الخضر، فقال عن الوجه الأول "وهذا خطأ، فإن مضمون هذا الكلام، أن من آمن بالقدر وشهد أن الله رب كل شئ لم يكن عليه أمر ولا نهي، وهذا مخالف لما جاءت به الرسل وما أنزله الله في كتبه، وأيضاً فإن موسى - عليه السلام- كان مؤمناً بالقدر وعالماً به، بل أتباعه كانوا مؤمنين بالقدر، فهل يظن من له أدنى عقل أن موسى طلب أن يتعلم من الخضر الإيمان بالقدر، وأن ذلك يدفع الملام مع أن موسى عليه السلام أعلم بالقدر من الخضر؟!، ولو كان هذا هو السرفي قصة الخضرلبين ذلك موسى، وقال: إني كنت شاهداً للإرادة والقدر، وليس الأمر كذلك، بل بين له أسباباً شرعية تبيح له ما فعل"[2]

.

ورد على الوجه الثاني بقوله:" وكل هذه المقالات من أعظم الجهالات والضلالات، فقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن رسالة محمد-ﷺ- لجميع الناس، وأنها باقية إلى يوم القيامة، وهي عامة للإنس والجن، فليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمته من

---

[1] - السلوك من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه، مرجع سابق،مجـ١٠، ص٥١٧ .

[2] - التصوف من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه، جـ١١،ص٢٣، ومجموعة الرسائل والمسائل: لشيخ الإسلام ابن تيميه، دار الكتب العلمية، بيروت ،مجـ٤،ص ٧٦ .

الدين وسنه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات، بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياء لوجب عليهم متابعته ومطاوعته، فإذا كان - ﷺ - يجب اتباعه ونصره على من يدركه من الأنبياء، فإنه لايجوز لمن بلغته دعوته أن يتبع شريعة رسول غيره، فإذا لم يجز الخروج عن شريعته إلى شريعة رسول، فكيف بالخروج عنه"[1].

إن هؤلاء الذين قالوا برفع التكاليف قد خالفوا الإسلام، وأقوالهم هذه تتعارض مع جوهر الإسلام ومع روح العقيدة الإسلامية الغرّاء، ذلك لأن العبادات في الإسلام إذا كان هدفها تزكية النفس وتطهير المجتمع، فإن العبادات في التصوف هدفها ربط القلب بالله تعالى والفناء فيه، ولا عبرة بما قالوه: من أن التكاليف ترفع عنهم لأنهم بلغوا درجة اليقين، ذلك لأن رسول الله صلى ﷺ لم يرفع عنه التكاليف حتى مرض موته، ولقد صلى بالمسلمين إماماً وهو جالس، وليس ذلك فحسب ولكن رسول الله صلى ﷺ من أجل وعده بالشفاعة العظمى والمقام المحمود، فقد ازداد تكليفه على تكليف أمته، قال تعالى: "ومن الليل فتهجد به عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً" (الإسراء:٧٩) [2].

وإذا كان شيخ الإسلام ابن تيميه قد قام بدور كبير في الرد على أصحاب هذه الدعوة، فإن المحققين من الصوفية وأكابرها وشيوخها قد أنكروا هذه الدعوة إنكاراً شديداً وأبانوا عن جوانبها السلبية الهدامة، ووقفوا منها موقف

---

[1] - التصوف من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه، مرجع سابق، جـ١١، ص ٤٠٣.

[2] - انظر : التصوف بين الغزالي وابن تيميه :عبد الفتاح سيد أحمد، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ٢٠٠٠م، ص ١٧٣ .

المعارضة والتنديد، وقرروا أن التكاليف الشرعية لاتسقط عن المكلف بأى حال من الأحوال حتى ولو بلغ درجة الوصول، كما أكدوا أن التمسك بالتكاليف الشرعية هو المقياس الحقيقى الذى يحكم به على صدق الصوفى الواصل مهما ظهرت عليه من كرامات وأحوال .

يقول الإمام القشيرى فى رسالته عن هؤلاء:" ارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، وأدانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا فى ميدان الغفلات وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات .... ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق، لا تجرى عليهم أحكامه، وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية"[1] .

ويقول الإمام الغزالى عن هؤلاء الإ باحيين:" وفرقة أخرى وقعت فى الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام، فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملى فَلِمَ أتعب نفس، ومنهم من يدعى: الوجد والحب لله قبل معرفته ثم لايخلو عن مقارنة ما يكره وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله"[2] .

---

[1] – الرسالة القشيرية ، مرجع سابق ، ص ٤ .

[2] – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالى ، مرجع سابق مجـ٢، ص٤٩٨.

ويقول الإمام الطوسى فى اللمع:" ثم زعمت الفرقة الضالة فى الحظر والإباحة، أن الأشياء في الأصل مباحة، فظنت هذه الطائفة الضالة بالإباحة، لأن ذلك كان منهم على حال، جاز لهم ترك الحدود، أو أن يجاوزوا حد متابعة الأمر والنهي، فوقعوا من جهلهم فى التيه وتاهوا، وطلبوا ما مالت إليه نفوسهم من اتباع الشهوات، وتناول المحظورات، تأويلاً، وجهلاً، وكذباً، وتمويهاً"[1] .

أما السهروردى فيبين لنا حقيقة هامة وهى أن التصوف على العكس مما ورد في الاتهام، يتطلب مزيداً من العبادات والقُرَب، وذلك فى الفصل الذى عقده فى "ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم، فيقول:" فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية، ولبسوا لبسة الصوفية لينتسبوا بها إلى الصوفية، وما هم من الصوفية بشئ، بل هم فى غرور وغلط يتسترون بلبسة الصوفية تارة، ودعوى أخرى، وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد، والارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام، المنحصرين فى مضيق الاقتداء تقليداً، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة، وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية، والحقيقة هى حقيقة العبودية، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية وحقيقة العبودية، وصار مطالباً بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك"[2] .

---

[1] – اللمع : أبو بكر الطوسى ، ص ٥٣٨ .

[2] – عوارف المعارف : الإمام شهاب الدين أبو حفص السهروردى ، تحقيق:د/ عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف، مطبعة السعادة . القاهرة ، ١٩٧١م ، جـ١، ص ٢٣٢ .

ويقول ابن القيم:" وقد صرح أهل الاستقامة وأئمة الطريق بكفر هؤلاء، فأخرجوهم من الإسلام، وقالوا: لو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة، أى ما دام قادراً عليه، وهؤلاء يظنون أنهم يستغنون بهذه الحقيقة عن ظاهر الشريعة، وأجمعت هذه الطائفة على أنَّ هذا كفر وإلحاد، وصرحوا بأن كل حقيقة لاتتبعها شريعة فهى كفر"[1]

كما بيَّن الشيخ أبو العزائم أن القائلين بهذه الضلالة إنما هم ضُلاَّل المتصوفة، ويعنى بهم الدخلاء على التصوف والصوفية، ثم ذكر أن السبب فى انتحالهم هذه الضلالة هو صحبة أهل الهوى، وأن الغرض من ذلك إنما هو الحرص على الدنيا، فقال رحمه الله تعالى :" وقد تخبط بعض المتصوفة فظنوا لجهلهم أن الإنسان إذا اتجاوز مقام الإسلام إلى الإيمان فالإحسان، لم يطالبه الله بأركان الإسلام، وذلك صريح الكفر، فإن رسول الله - ﷺ- يوم وفاته لم يترك الصلاة ونصفه الأسفل فارق الحياة، وكذلك عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – لما أصبح الناس وطعنه أبو لؤلؤة المجوسى – قبحه الله –وسال دمه لم يترك الصلاة؛ فإذا كان النبى - ﷺ - لم يترك الصلاة ونصفه الأسفل فارق الحياة، وعمر بن الخطاب لم يتركها وقد فقد الحس والحركة ولم يبق له إلا أنفاس قلائل، فكيف يدعى هؤلاء الأبالسة أن الصلاة تسقط عمن تَمَلَّكَهُ الشيطان بغروره؟ فأركان الإسلام الخمسة هى أصول، وما زاد عليها من ولايه وحب وقرب هى فروع، فإذا زالت الأصول انمحت الفروع، والواجب على المسلمين أن لايفارقوا موازين الشريعة من قلوبهم ولا من أبدانهم، فإذا

[1] – مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية، تحقيق : محمد صلاح، مكتبة الرحـاب، القـاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، جـ٢، ص ٣٠٢.

رأوا رجلاً يمشي على الهواء أو على الماء أو يقول بإسماء أمطرى وبالأرض أنبتى فتفعل، وهو تارك لركن من أركان الإسلام، فإنه شيطان يستدرجه الله تعالى ليفتن به أهل الضلالة، وأكرم كرامة من الله لعبده هي الاستقامة، وسبب هذا البلاء الذى هو الشطح والخروج عن موازين الشريعة صحبة أهل الهوى والطمع والحرص على الدنيا من الجهلاء"[1].

وينفرد الإمام الغزالي بفهم آخر يختلف عن الجميع في دعوى إسقاط التكاليف، حيث إنه يلاحظ ما في معنى التكليف من مشقة وتعب يُطهر بها قلب المؤمن وتختبر قوة إيمانه، وبما أن الصوفي الواصل قد تجاوز مرحلة التطهير هذه، فقد افتقد التكليف لديه ما يتسم به عادة من المشقة والعسر والتعب، بل لقد أصبح للقيام بالتكاليف عنده مذاق خاص لا يشعر بحلاوته غير هذا الصوفي الواصل، ومن ثم تسقط التكاليف عنه، بمعنى تزول المشقة التي فيها ويحل محلها حلاوة مذاق الطاعة .

يقول الإمام الغزالي:" بل معنى ارتفاع التكليف عن الولي، أن العبادة تصير قرة عينه، وغذاء روحه، بحيث لا يصبر عنه فلا يكون كلفة فيه ... والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى، لا بمعنى أنه لا يصوم ولا يصلي ، ويشرب ويزني"[2].

---

[1] - أسرار القرآن : الإمام محمد ماضي أبو العزائم ، دار الكتاب الصوفي،القاهرة، ط٣ ، ١٩٩٢م ، حـ٣، ص١٠٧، ١٠٨ .

[2] - المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي مع أبحاث في التصوف: د/ عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثه، القاهرة، ص٣١٢.

ولا شك أن هذا الفهم من الإمام الغزالى هو فهم متميز حقاً، وعلى أساسه نستطيع أن نقول بأن عبارة رفع أو إسقاط التكاليف إذا وردت من بعض الصوفية المتمسكين بالكتاب والسنة فإنهم يقصدون بذلك رفع المشقة والتعب والعناء عن العبد فى أداء العبادات والتقرب بالنوافل والقربات، فيصير يتلذذ بالعبادة، ولا يشعر بثقل فى أدائها، ولا يحس بملل ولا فتور عند القيام بها لما يجده من حلاوة القرب مع الله عزوجل، فهذا هو المقصود برفعها، وليس رفعها بأن يترك الشرع، ولو كان أحد رفع التكليف عنه لقربه من الله تعالى، لكان أولى بذلك سيدنا رسول الله -ﷺ- لكنه كان أحرص الناس على أدائه والالتزام به، وكذلك الصوفية المحققون أجمعون .

كما أن المعرفة بالله تعالى الناتجة عن شدة القرب منه لا تزيد المرء إلا اجتهاداً فى عبادته ومبالغة فى طاعته، فالإنسان كلما ازداد قرباً وحباً لله تعالى كلما كان حريصاً على التمسك بالطاعات والعبادات والإكثار منهما، وكفى برسول الله ﷺ مثالاً يقتدى به، ألم يكن يصلى حتى تتفطر قدماه، ويكثر من العبادات وهو الذى وصل إلى أعلى درجات القرب، فكان أعرف الخلق وأعبدهم ؟ .

وإلى هذا المعنى يشير ابن القيم فيقول:" فإن العبد كلما كان إلى الله أقرب، كان جهاده فى الله أعظم، قال تعالى (وجاهدوا فى الله حق جهاده) "الحج: ٧٨" ، وتأمل أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه، فإنهم كانوا كلما ترقوا من القرب فى مقام عظم جهادهم واجتهادهم، لا كما ظنه بعض الملاحدة المنتسبين إلى الطريق، حيث قال: القرب الحقيقى تنقل العبد من الأحوال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة، ويريح الجسد والجوارح من كد العمل، وهؤلاء

أعظم كفراً وإلحاداً حيث عطلوا العبودية، وظنوا أنهم استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة، التي هي من أماني النفس وخدع الشيطان.[1]

وأخيراً نستطيع القول بأن هؤلاء الذين ادعوا إسقاط التكاليف الشرعية ليسوا من الصوفية المعتدلين المتمسكين بالكتاب والسنة، وإنما هم قلة من الأدعياء الدخلاء الذين انتسبوا إلى الصوفية وليسوا منهم، وأن هذا الادعاء هو ادعاء خاطئ لا أساس له، لأنه مخالف للكتاب والسنة، ومخالف للعقل أيضاً، لأن الصوفية هم من صفت قلوبهم لله تعالى، وهم الذين يلازمون العبادة والتصفية، ومن أهم صفاتهم الخوف والخشية من الله، فهل يستسيغ عاقل أن قوماً كهؤلاء صفت نفوسهم وأخلصوا لله تعالى في العبادة والحب أن يقال فيهم: إنهم أسقطوا التكاليف الشرعية وخرجوا على الشرع وأحلوا الحرام وتركوا المأمور وفعلوا المنهى، إننا نرى أن هذه الدعوى – دعوى إسقاط التكاليف الشرعية – مما دُسّ على الصوفية بغرض تشويه حقيقة التصوف وأهله .

[1] – مدارج السالكين : ابن قيم الجوزية، مرجع سابق ، جـ ٢، ص٣٠١ .

## الخاتمة

بعد أن انتهيت بحمد الله تعالى وتوفيقة ورعايته وتأييده من موضوع هذا البحث والذى جاء بعنوان " دعوى إسقاط التكاليف الشرعية وموقف الصوفية منها"، اختم الحديث – إن شاء الله تعالى – بذكر أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذا الموضوع وهى كالتالى :-

١- إن مرحلة نضوج التصوف وازدهاره تبدأ من القرن الثالث الهجرى وما بعده، حين تحول التصوف إلى علم للأخلاق الدينية، يهدف إلى الترقى بالنفس الإنسانية لتبلغ كما لها.

٢- إن مرحلة انحطاط التصوف وانحرافه تبدأ من القرن الثامن الهجرى وما بعده حتى عصرنا الحاضر، حين اختلطت الفلسفة بالتصوف، وحين انتسب إلى التصوف رجال لا يفقهون شيئاً عن التصوف، وإنما هم أدعياء ودخلاء على التصوف والصوفية الحقيقيين .

٣- هناك أسباب حقيقية ساعدت بل تسببت فى وجود الانحرافات والدعوات الهدامة فى التصوف الإسلامى، لعل من أهمها: وجود الأدعياء والدخلاء، وفساد القدوة فى الطريق الصوفى، والمغالاة فى حب المشايخ، والاتجاه إلى الرمزية فى التعبير، والشطحات التى نطق بها البعض .

٤- يقف الصوفية من التكاليف الشرعية موقف الساجد لها، فهم يتمسكون بالكتاب والسنة، ويدعون إلى ضرورة التمسك والعمل بهما، ولقد التزموا بذلك فعلاً، وعاشوه حياه، ودعوا إليه طريقاً وعقيدة، وهذا يظهر لنا من خلال أقوالهم الكثيرة التى سبق ذكرها فى البحث .

٥- دعوى إسقاط التكاليف الشرعية ليست نابعة من التصوف، وإنما هى نزعة ظهرت في ديانات الفرس القديمة، وتأثر بها غلاة الشيعة الذين استباحوا لأنفسهم التمرد على سلطان الشريعة والتحلل من القانون الدينى والأخلاقى والنزوع إلى الإباحية والإلحاد .

٦- إن الذين ادعوا إسقاط التكاليف الشرعية ليسوا من الصوفية المعتدلين المتمسكين بالكتاب والسنة، وإنما هم قلة من الأدعياء الدخلاء الذين انتسبوا إلى الصوفية وليسوا منهم .

٧- إن عبارة رفع أو إسقاط التكاليف الشرعية إذا وردت من بعض الصوفية المتمسكين بالكتاب والسنة، فإنهم يقصدون بذلك رفع المشقة والتعب والعناء عن العبد فى أداء العبادات والطاعات، بحيث يتلذذ بالعبادة فى أدائها ولا يشعر بثقل أو ملل أو فتور فى أدائها، فهذا هو المقصود برفعها، وليس رفعها بأن يترك الشرع .

وأخيراً فهذا عمل بشرى والقصور من سمة البشر، فإن أصبت الصواب والسداد، فمن الله وحده، بفضله وكرمه، وإن كانت الأخرى فمن نفسى والشيطان، وإن الدين النصيحة، فمن وجد خيراً فليدع لى بمزيد من السداد والتوفيق، ومن وجد غير ذلك، فالمؤمن مرآة أخيه والنفس مستنصحة .

"وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"

## مراجع البحث


- التصوف الإسلامي في مراحل تطوره: عبد المحسن سلطان، دار الآفاق العربية، القاهرة ،٢٠٠٣م .
- الموسوعة الصوفية : عبد المنعم الحنفي، دار الرشاد، القاهرة ، ط١، ١٩٩٢م .
- بين التصوف والأدب : محمد إبراهيم الجيوشي، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- التصوف الثورة الروحية في الإسلام : أبو العلا عفيفي، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٣م .
- بحار الحب عند الصوفية: أحمد بهجت ، دار المختار الإسلامي ، القاهرة، ط١، ١٩٧٩م .
- الحياة الروحية في الإسلام: محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م .
- التصوف بين الغزالي وابن تيميه: عبد الفتاح محمد سيد أحمد، دار الوفاء، المنصورة ،ط١، ٢٠٠٠م .
- دراسات في التصوف والأخلاق: سامي عفيفي حجازي ، طبعة القاهرة ، ١٩٩٨م .
- محاضرات في التصوف الإسلامي: أبو الوفا التفتازاني ، دار الشباب للطباعة ، القاهرة .

- الطبقات الكبرى : عبد الوهاب الشعرانى ، طبعة مكتبة محمد على صبيح وأولاده، القاهرة ، د.ت.
- التصوف الإسلامى منظور تحليلى من خلال الرواه : محمد محمود شحاته، طبعة القاهرة ، ١٩٩٢م .
- مدخل إلى التصوف الإسلامى: أبو الوفا التفتازانى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، ١٩٨٣م .
- منهج التأويل فى الفكر الصوفى : نظلة الجبورى ، مكتبة ابن تيمية ، البحرين ،ط١، ١٩٨٨م .
- مقدمة ابن خلدون : دار القلم ،بيروت ،ط٥، ١٩٨٤م .
- الطرق الصوفية فى مصر: عامر النجار،ط٣، القاهرة ،١٩٨٦م .
- التفكير فريضة إسلامية : عباس محمود العقاد، دار الهلال ،القاهرة ،١٩٨٨م .
- إحياء علوم الدين :أبو حامد الغزالى ،مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٨م .
- مذكرة المرشدين والمسترشدين : محمد ماضى أبو العزائم ،دار المدينة المنورة القاهرة، ط٢، ١٩٨٣م .
- الطرق الصوفية فى مصر : أبو الوفا التفتازانى ،رسائل المجلس الأعلى للطرق الصوفية، مطبعة الأمانة ،القاهرة، ١٩٩١م .
- أصول الملامتية وغلطات الصوفية: أبو عبد الرحمن السلمى، تحقيق :عبد الفتاح الفاوى، مطبعة الإرشاد ،القاهرة ،١٩٨٥م .

- المنقذ من الضلال مع أبحاث فى التصوف : عبد الحليم محمود،دار الكتب الحديثة، القاهرة ،د.ت.
- العارف بالله سهل بن عبد الله التسترى : عبد الحليم محمود ، منشورات المكتبة العصرية، بيروت .
- التصوف الإسلامى وأهم الاعتراضات الواردة عليه: محمد عبد اللطيف العبد، دار الثقافة العربية ،القاهرة ،ط١، ١٩٨٦م .
- الرسالة القشيرية : عبد الكريم القشيرى ، طبعة مكتبة محمد على صبيح، القاهرة ، ١٩٦٦م .
- نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها: عرفان عبد الحميد عرفان، دار الجيل ، بيروت،ط١، ١٩٩٣م .
- فى نقد الصوفية : محمد أبو سعدة ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
- قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل ،ط٢، القاهرة ، ١٩٥٨م .
- اللمع : السراج الطوسى ، تحقيق :عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقى سرور، طبعة القاهرة ،١٩٦٠م .
- أبو يزيد البسطامى : عبد الحليم محمود، دار التراث العربى للطباعة والنشر، القاهرة .
- طبقات الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمى، تحقيق :أحمد الشرباصى، مطبعة الشعب ، القاهرة .

- في صحبه الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى: عبد الرحمن حسن محمود، مكتبة عالم الفكر، القاهرة / ط١، ١٩٨٩م .
- هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادى ، طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت عن طبعة استانبول، ١٩٥١م .
- قواعد التصوف : الشيخ أحمد بن زروق ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٨م .
- الملل والنحل : عبد الكريم الشهرستانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى، طبعة مصطفى الحلبى، القاهرة ، ١٩٧٦م .
- الفرق بين الفرق : عبد القاهر البغدادى ، طبعة مؤسسة الحلبى، القاهرة .
- مجموع الفتاوى : شيخ الإسلام ابن تيميه ، طبعة الرياض ، السعودية ،ط١.
- العبودية : شيخ الإسلام ابن تيميه ، طبعة دار التأليف ، القاهرة ، ط٣، ١٩٤٧م .
- مدارج السالكين: ابن قيم الجوزيه، تحقيق : محمد صلاح ، مكتبة الرحاب ، القاهرة ،ط١، ٢٠٠٧م .
- عوارق المعارف :الإمام شهاب الدين أبو حفص السهروردى ، تحقيق: د/ عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف مطبعة السعادة، القاهرة ، ١٩٧١م .

# فهرس الموضوعات